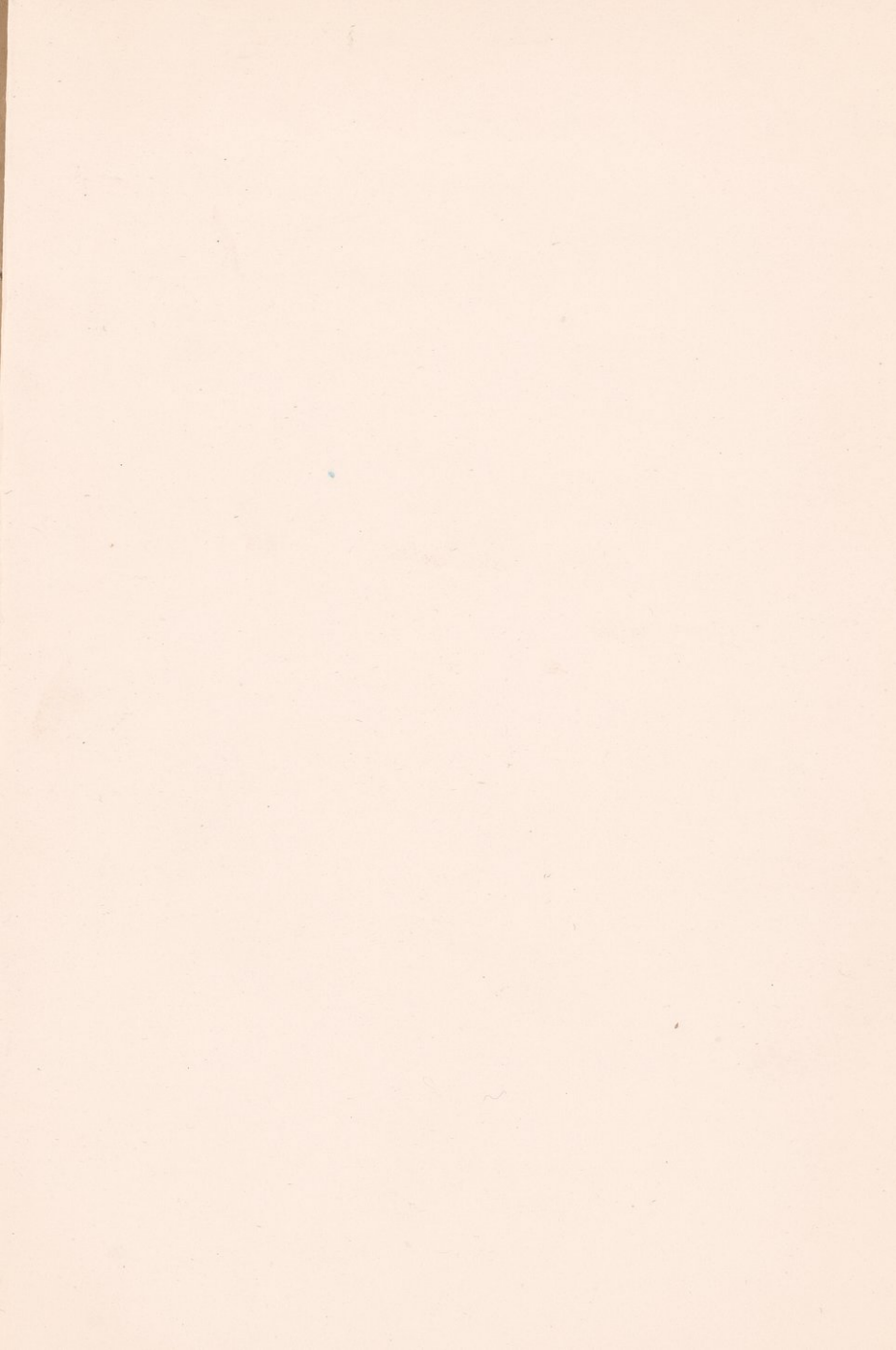


A. U. B. LIBRARY



اربع محاضرات

في

التربية في إنجلترا وأمريكا

ومقارنتها بالتربية عند الأمم اللاتينية

سلمني قياد التربية وأنا كفيل
بأن أغير وجه أوروبا قبل قرن
واحد من الزمان
ليبنز

(ألقاها)

أحمد فهمي العمروسي بك

Donnez-moi l'éducation
et je changerai la face de
l'Europe avant un siècle.
Leibnitz

مدير المكتب الفني بوزارة المعارف

(على ملاء من رجال التعليم بنقابة المعلمين)

في يناير سنة ١٩٢١ ومايو سنة ١٩٢٥

(قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب)

(بمدارس المعلمين والمعلمات)

« الطبعة الثانية »

١٩٢٦ م — ١٣٤٤ هـ

الثلث ١٠

68106

مطبعة مصر شركة دار الكتب

٥٠٠٠/٢٦/١٥٩٠

Gift. Dr. Kuran.

Oct. Oct. 1948

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا

التربية في الجلسات

المحاضرة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعد الثناء على الله جل شأنه والصلاة والسلام على أنبيائه
ورسوله أشكر لحضراتكم برکم بالأدب وجميل مظاهرتكم للعلم
واستباقكم إلى تشجيع الباحثين فيه والمنقبين عنه وخاصة فنون
التربية التي أنتم حُماة ذمارها وخيرة أنصارها وأرجو أن يصيب
مقالى الغرض الذى سدده اليه، ويأتى بالثمرة التى رجوتها منه،
منذ عشر سنين أتذكر أنى قمت مثل هذا المقام بين جملة
من المتخرجين فى دار العلوم وطلابها شارحاً شيئاً من آراء
هر بارت الألمانى فى التربية واليوم أتشرف بأن أقوم أمام جماعة
المعلمين لأذكركم ببعض ما يعلمون من آراء الانجليز فى التربية
والتعليم، والموازنة بينها وبين التربية والتعليم فى فرنسا، على ما
اتسعت له الطاقة، وبلغ الجهد اعلنا نجد فى شىء من ذلك نقعاً
للغلة وإنهاضاً للتربية فى بلادنا الى مثل منزلتها العالية فى الأمم الراقية

وإن المعلومات التي سأذكرها لكم مستمدة من كتب
فرنسية وضعها سنة ١٨٩٥ كَتَّاب فرنسيون تربوا في إنجلترا
ودرسوا طرق التربية فيها وعُرِضَتْ كتبهم على المجمع العلمي
فأقرها ونالت بذلك صبغة رسمية أو شبيهة بها وسترون من
نص حديثها أنها كثيراً ما تؤثر الطرق الإنجليزية على غيرها،
وليس بدعاً فالفرنسيون لا يأنفون أن يحتذوا أمة من الأمم
في فرع من الفروع إيثاراً للحق وضناً بالنفع واعترافاً بالفضل
لأهلها وما أعد لهم اذ يقولون (أعطِ ما لقيصر لقيصر)

ولئن يسرلى الله غداً العثور على معرفة صحيحة في طرق
التربية عند الأمريكان أو اليابان لا أقدم في موافاتكم بها وإيقافكم
عليها إن رأيتم فيها ما يصلح من حالنا ويقوم من عوجنا

« فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث يجدها » وتعلمون

أن الأمة كالفرد لن ترقى رقيها وتنزل منزلتها حتى توازن بين
أسبابها وأسباب غيرها من الأمم الراقية ، أما إذا اعتزلت من
عداها من الأمم فإن مثلها يكون كمثل الماء الراكد تنتابه
عوارض الفساد ويصبح قرارة لجراثيم الأمراض

ولقد علمت بطول الاختبار أن علم التربية على جلالة

قدره وعظيم منزلته وجمال أثره في النفوس يتركب من عدة قضايا صغيرة واعتبارات وملاحظات تظهر لأول وهلة أنها تفهية لا يؤبه لها ولكنها مع المداومة وطول الأناة قد يكون لها من النتائج ما لا يكاد يتصوره الانسان

قل أن يقرأ الإنسان حكاية أو يسمع فكاهة دون أن يجد فيها غرضاً من أغراض التربية المتشعبة ويضيفها الى باب من أبوابها المتفرقة

ألا إن مجال فن التربية واسع المدى — بل لا حد له — ولا غرو فموضوعه الإنسان وهو ذلك اللغز المغلق الذي حارت البرية في فهم كنهه والوصول الى غوره وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

نظام التربية والتعليم في إنجلترا

إن نظام التربية والتعليم في إنجلترا يختلف اختلافاً ظاهراً عنه في فرنسا وفي غيرها من سائر الأمم الأخرى والإنجليز يتمسكون به ويحرصون عليه أشد الحرص ولن يقدر أحد من المصلحين على نقد قاعدة أو عادة منه أو نقض عقيدة من عقائده ولو كانت أشبه بالخرافة إلا أن يسلك

الى غرضه سبيل الملاينة ويبذل من الحكمة والمصانعة مقداراً
عظيماً فان لم يفعل فانه يؤذن بحرب ويؤذى بكل لسان
وانا لباحثون فى الأطوار التى يمر بها الشاب الانجليزى
والبيئات التى يحتازها من بدأته الأولى الى أن يضع قدمه فى
معترك الحياة لنوفى الموضوع بعض حقه من البيان والشرح
فنقول :

يمر الانجليزى من مدرج طفولته الى أن يكون كهلاً
بيئتين عظيمتين كلناهما عالم فى ذاته كامل فى عُدته وهما البيت
والمدرسة فيصقل فيهما صقلاً ويصاغ صوغاً يبقى أثره فيه
مدى الحياة

وفى كلا الوطنين يعنى بتربيته تربية كاملة جامعة بين
إنماء الجسم وتهذيب الخلق وتثقيف العقل لأن الانكليز لا
يفرقون كغيرهم بين التربية والتعليم ولا يستطيعون أن
يتصوروا فى أنفسهم أن يقتصر عمل البيت أو المدرسة على
تخريج رجال أفاضل مهذبين لا علم عندهم أو علماء متبحرين
لا أخلاق لهم ولا خير فيهم
فالتربية والتعليم عندهم يمتزج بعضهما ببعض لا ينفصل

أحدهما عن الآخر حتى أن لغتهم نفسها على سخائها لا تجود
عليهما الا بكلمة واحدة جامعة للمعنيين هي كلمة (Education)
« تربية »

واذا كانت الحكمة الإلهية قد جعلت تطور الإنسان
في أدوار حياته سائراً على خطة معينة فكان نمو جسمه وتيقظ
وجدانه سابقين ظهور العقل وجب على المربين أن يحتذوا
مثالها ويجروا على رسمها بادئين بتربية البدن وتهذيب الخلق
ومعقبين بتشقيف العقل، والآنجليز تلاميذ الطبيعة ومغرمون
بنقليدها في كل شيء

التربية البيتية

يتألف المجتمع الراقى الانجليزى من قبيلين من الناس :
العصاميين وهم الذين عركوا الدهر وذاقوا حلو الأيام ومرها
ودرسوا أخلاق الأمم في مدرسة الحياة العملية (Self Made Men)
والعظاميين المربّين في المدارس الذين تقيّئوا ظلال العلم
في الجامعات العتيقة (University Men) وكلاهما من قبل
منشأ على أساس واحد فيه طابع التربية البيتية

البيت

عند الانجليز لفظ وجيز (Home) يعبرون به عن البيت وهو عندهم لفظ حسيب قيم قد يقل وجود كلمة تماثله في اللغات الأخرى

ذلك البيت بمعناه المفهوم عند الانجليز هو الحرم المحروس الذي لا يأوى اليه الا أفراد الأسرة وله في قلب كل انجليزى منزلة لا تسامىها منزلة يلجج بذكره أينما حل أو رحل ويطرب لسماع أحاديثه العذبة وتذكاراته المحبوبة التى يعتقد أنه وحده هو الذى يحس جمالها ويدرك كنهه تأثيرها ويتغنى بمجده وشرفه شعراً ونثراً بأنه حى يتمتع الانسان فيه بالراحة الهادئة والاستقلال التام وينعم بالامن الذى لا وحشة معه والصفاء الذى لا كدر فيه

فاذا دخلته هموم الدنيا الخارجية أو سمح أحد الزوجين لأجنبي بعيد عن الجد والأدب أن يطأ بقدميه عتبة فهو ليس بالبيت المنشود وانما هو بناء سقف بسقف وأضى من الداخل بمصباح (أعنى أن له صورة البيت وليس بيت) البيت الخليق بهذا الاسم عندهم هو ذلك الحرم المقدس

المخوف من جوانبه برعاية الله لا يعتوره الفساد من بين يديه
ولا من خلفه ولا يدخله الا من يقابل فيه بالترحاب، من المخلصين
من الآل والأصحاب

« وقد ترجمته بالبيت لأن البيت يأتي بمعنى العيال فيقال
بيت الرجل عياله ويأتي أيضاً بمعنى الشرف فيقال بيت العرب
شرفها »

عميد البيت :

وعميد البيت هو الزوج القابض على زمامه المتصرف في
أموره يدير شئونه على ما يرى غير مدافع ولا منازع فهو الذي
أسسه وشيد دعائمه والقانون والاجتماع يلقيان على عاتقه تبعة
القيام باعبائه وهديه للتي هي أقوم حتى يبلغ به أقصى درجات
الكمال، لا يسأل على ذلك أجراً الا الطاعة والاحترام فهو يريد
أن يكون أباً محترماً قبل أن يكون أباً محبوباً وقد انطبعت
هذه الإرادة في نفوس بنيه وذويه حتى إنك لتسمع الشاب
الانجليزي — أكثر ما يكون — يخاطب أباه بكلمة Sir
(سيدى) كما يخاطب الخادم سيده، وقد لاحظ كاتب أمريكى

مع شيء من الدهش والاستغراب أن المرأة في إنجلترا تعتبر الرجل أرقى منها مكانة وأسمى منزلة فقال « ان إنجلترا هي جنة الرجال »

والسبب في هناء الانجليزى في بيته ورغد عيشه أنه أولاً يعرف كيف يحترم نفسه وثانياً أنه هو الذى أسس البيت وشيد دعائمه على نفقته فكان سيده لأن أكثر الانكليزيات يتزوجن فقيرات لا يقدمن مهرأ فلهذا ترى الانكليزى محترماً في بيته ، أما الذين يطلبون المال من الزواج فهو لاء لهم أن يطمعوا في المال كما يريدون ، ولكن هيهات أن يطمعوا في الاحترام . بل لا بد لهم من النزول عنه لمن اشترينه منهم بأموالهن ولا ريب أن النزول عن الاحترام نزول عن الحياة فان الاحترام غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسم فهما في قوام الحياة سيان ولله در الأمام على إذ يقول : احتج الى من شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره

وقد أكد ذلك الاحترام ماخوله القانون إياه من السلطة التامة ، والتصرف المطلق في أموال الأسرة بأكملها ، فأمره

طاعة ، وإرادته ماضية على زوجه وولده ، لا يقتصر على نفسه
ابتغاء التوسعة عليهم ، ولا يتكالب على جمع المال ليتركه من
بعده لهم

وقصاراهُ أنه ملزم بمقتضى الرسوم القومية والقانون
أحياناً برد ضيعة بعينها أو وصية خاصة الى بكر أولاده ، كما
صنع أبوه من قبل ، وبعد ذلك هو ملك مطلق فى مملكته
محترم بين رعاياه احتراماً يكاد يكون دينياً . ولا كذلك الأب
الفرنسى فإنه فى أسرته أشبه برئيس منتخب فى مجلس نيابى
أسس على المشادة والمناقشة ، يقول مستر همرتن فى كتابه
(الانكليز والفرنسيون) المطبوع سنة ١٨٩١ : سألت فرنسيه
من أصدقائى ، مابال أولادك يكامونك بحرية تامة دون أن
يظهر عليهم أنهم متأثرون بهيبة السلطة الأبوية فأجابنى
وكيف ننتظر منهم احتراماً واعتباراً ونحن قد علمناهم احتقار
معتقدات آبائنا وأنظمة أجدادنا ، اننا لم نغرس فى قلوبهم
خلة الاحترام

قال وأما نظرية الانكليز فى احترام الأبناء للآباء ،
فتؤخذ مما يلى : عرفت شاباً كان لا يذهب الى الكنيسة الا

نادراً ولما رزق أربعة من الأولاد وبلغ البكر منهم سن العاشرة أخذ يذهب إليها بنظام لا اعتقاده أن الدين من ألزم الأمور العاملة في التريبة ، وأنه من الواجب عليه أن يكون قدوة حسنة لأولاده كلما تحركوا وأفعوا ، وكان يلعب (التنس) يوم الأحد في حديقته فأبطل هذه العادة أيضاً تعزيزاً لما يتلقاه أولاده في المدرسة من احترام ذلك اليوم ، وترك العمل فيه اقتداءً بالخالق جل شأنه على ما يعتقدون ، واستن لنفسه من ذلك الحين السنة الآتية : احترم إذا شئت أن يُحترم

الزوجة الانجليزية

أما المرأة الانجليزية فتمتاز بالشجاعة والاقدام والصبر على احتمال المشاق لاهتمام كثير بما يأتي به الغد ولا تهاب ما قد تضمره لها الأيام والأسفار البعيدة من المباغطات والمفاجآت فهي ظل زوجها حيث سار تشاطره الخفة في الحركة ، والمضاء في العزيمة بما أوتيت من بسطة في الجسم ومتانة في الخلق فهي زوجة تحرص قبل كل شيء على القيام بواجبها نحو زوجها

على أفضل ما يكون ، ثم تُعنى بتربية أولادها على أكمل وجه وأتمه ، فهي زوجة قبل أن تكون أمًا ، بخلاف المرأة الفرنسية فان حبها لولدها يُقدِّم كل شيء ثم يأتي بعدُ حبها لبعْلِها حتى كأنما هي أمُّ قبل أن تكون زوجة ، وقد تغلُو في ذلك الى حد الاخلاد الى الراحة والأمن والاكتفاء بقليل من سعادة داخلية يسيرة ، فلا تجشم زوجها صعاب الأسفار ، وركوب الأخطار لأنها لا تبغى الانفصال عن أولادها ، والتغرب عن أوطانها ، فكم من همم ثَبَّطَتْ ، وأعمال أَحْبَطَتْ ، ومشروعات أَبْطَلَتْ بركونها الى الدعة . وإفراطها في الخنو على أولادها

ذهب العالم الطبيعي الفرنسي « ملن ادوردز » لزيارة اكسفورد مرة فأخذه الدهش من قلة ما يدرس فيها من العلوم وبينما كان ذات ليلة يستريح مع من كانوا مكلفين مرافقته ، وكان من بينهم أستاذ علم الجيولوجيا وهو معروف بالصراحة التامة ، إذ قال لهم مابال الشبان الانكايز لا يتعلمون في المدرسة إلا قليلا من اللاتينية واليونانية ويقضون بقية أوقاتهم في لعبة الكركيت والسباحة والجذف ثم يصبحون من غير

عناء رجالاً من الطراز الأول وحكاماً حاذقين وسياسيين
ممكنين كپارستون وغلادستون فأجابه أستاذ علم الجيولوجيا
من فوره "They have got English Mothers" ذلك لأن
لهم أمهات انجليزيات والجواب على بعده من الظرف والمجاملة
اللائقة بالضيف فيه أكبر قسط من الحقيقة لأن الأم المهذبة
من أهم العوامل الناهضة بالأولاد إلى ذروة السعادة والمجد
ولقد أحسن شاعرنا حافظ إذ يقول :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم الانكليزية تشغف بأولادها وتقوم بالواجب لهم
خير قيام فترضعهم بنفسها وتشرف على حركاتهم وسكناتهم
كامل الإشراف ولكن لا يرى على وجهها أو من خلال
أعمالها ذلك الحنو الزائد وتلك الشفقة التي تفيض عادة من
غيرها من الأمهات فهي تسير في تربيتهم على قاعدة قوية
وخطة مرسومة فتدعهم من نعومة أظفارهم يكابدون الحوادث،
ويامسون الأخطار بأيديهم، ويتعرفون ما حولهم، ليميزوا
الخير من الطيب، وليفرقوا بين الغث والسمين واضعة
نصب عينها أمراً مهماً وهو غرس بذور الرجولة في نفوسهم

وتكوين مبادئ الشجاعة والشهامة في طباعهم حتى إن الواحد منهم إذا هم بالبكاء عند وقوعه على الأرض ابتدرته بقولها له "Be a man" كن رجلاً ولا تبك ، فان البكاء المسموح به لأختك عار عليك ، يسمع الطفل عشرين مرة في اليوم كن رجلاً ولا تبك فان البكاء عار على الرجال فتؤثر في نفسه بالتكرار والاستمرار ، وقد شوهد كثير من الاطفال قبل أن يعرفوا القراءة والكتابة بلغ من تربيتهم على هذا النمط أنهم يملكون أنفسهم ويضبطون عواطفهم حتى إنهم ليُمسكون عن البكاء إذا مسهم ضر أو نالهم أذى ، وبينما هم كذلك يتدرجون في مدارج الرجولية ويمرنون على تذليل العقبات إذ الشاب الفرنسي لا يزال غراً لا يعي من ذلك شيئاً لوجوده بين اثنين ، أم لا تدعه لحظة يعاني المصادفات ويقاوم الطبيعة ، ممسكة برجليه حتى لا تنزل قدماه إذا كان صغيراً ، وبزمامه كي لا يركب شططاً أو يأتي غلطاً إذا كان كبيراً ، وأب يظل نهاره يكدح في جمع ثروة يتركها له من بعده فهو بين أبوين ، أم تسعد له الحال ، وأب يكفل له الاستقبال

عطية مدام (١) و مدام (ب)

مدام (١) باريزية تقطن باريس وتربى أولادها على النمط الفرنسى طبعاً

ومدام (ب) باريزية أيضاً ولكنها سكنت مدينة لندن فربّت أولادها على الطراز الانكليزى

وحدث أنهما حضرتا معاً فى العطلة الصيفية إلى ريف فرنسا وأقامتا بقريتين متجاورتين

وكانت المسافة بين منزل مدام (١) ومدرسة ابنها ٥٠٠ متر، على حين كانت المسافة بين منزل مدام (ب) ومدرسة ابنها أربعة كيلو مترات، ولكن مدام (١) مع قرب مدرسة ابنها من منزله كانت ترافقه إليها ذهاباً وجيئة لا تفتر عن ذلك يوماً واحداً

أما مدام (ب) فقد وكلت ابنها فى ذهابه إلى مدرسته البعيدة عن منزله إلى نفسه فكان (وهو من سن ابن صاحبها) يخرج من البيت وحده مبكراً متأبطاً كتبه كالرجل المعتمد على نفسه ويقطع ٤ كيلو مترات ذهاباً ومثلها اياباً دون أن

يشغل بال أمه به

تلك هي شفقة الأم الفرنسية وهذه شجاعة الأم
الانكليزية وكلاهما أمر حسن تحمد المرأتان عليه وإن آثرنا
الثانية على الأولى

ولكن ماذا ترون في الأم المصرية التي تسلم بניהا وبناتها
إلى الخدم وهم كما نعهد من أجهل الناس وأحطهم تربية
وأسوئهم أخلاقاً

لماذا لا نصحب أبناءنا وبناتنا إلى مدارسهم ومواطن
حاجاتهم ونشفق عليهم وهم أفلاذ أ كبادنا أن يقبض على
أزمتهم من الخدم من يخشى أن يؤثر فساد أخلاقهم فيهم
لعمري إنها ثمة في بناء تربيتنا المنزلية لابد من سدّها
وعلة من عللنا الاجتماعية لابد من علاجها لأننا ناهضون
والناهض لا يدع فاسداً إلا أصلحه ولا يعرج على معوج إلا
قومه ولا يلوى على شعث إلا مله

الأسرة الانجليزية

يرزق الانجليز عادة جمّاً غفيراً من الأولاد يجيئون

متتابعين فيعنى بوضعهم في حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية في سنيهم الأولى وتسمى بالمَرْبى، (Nursery) والعوامل الأساسية التي يجب أن تتوفر في المَرْبى ثلاثة: الأم والمریة والهواء، وقد وصف الشاعر الشهير راسكن المَرْبى الراقى ذا كراً عهد طفولته فقال: إنه حجرة في الطبقة الأولى من المنزل فسيحة الأرجاء متجددة الهواء وفيرة الضوء تامة النظافة غاية في السداجة ينام فيها الطفل وياً كل ويرتع ويلعب لا يخشى كسراً لآنية ثمينة أو اقلاق راحة أمه المريضة أو التهويش على أيه المنكب على عمله، بها حوض كبير يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً، ويراعى في لباسهم السداجة والسعة والنعومة إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهى بجمال الثياب بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الأعضاء بالحركة الحرة والجري واللعب على ما يشتهي الأطفال. وهم ياكلون معاً في مواعيد مقررة وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف. ويخرجون كل يوم للتنزه صيفاً وشتاءً مستنفدين الساعات في الجرى والوثب والظفر وتسلق الأشجار والتدحرج على الأعشاب متحملين في ذلك

تبعة أعمالهم وعليهم وحدهم يقع الضرر الذي ينجم من عدم
إعمال الروية والتبصر في عواقب الأمور قبل البدء في تنفيذها
هذا هو المرءى الحائز جميع الشروط وما كاد يصفه كاتب
ثقة كراسكن ويشير به حتى تبعه قومه في كل ناحية واتخذته
جميع الأسر نموذجاً حسناً يقتدون به وينسجون على منواله،
والانكليز أكثر الناس اتباعاً لأقوال حكمائهم وعلمائهم
وأهلهم قياداً واستسلاماً لأوامر رؤسائهم فإذا قال راسكن
فالقول ما قال راسكن وإذا قال سبنسر فالقول ما قال

وتلك الطاعة المنبعثة عن الرضا الخالصة من شائبة
الإكراه هي من صنع التربية الإنكليزية التي اتقنت غرس
الفضائل الاجتماعية العالية في نفوس أفراد الأمة لأنها الأساس
الذي يقوم عليه بناؤها

وأذكر على سبيل الاستطراد حكاية لا تعزب عن ذهني
كلما ذكرت الطاعة

اشتهرت قبيلة عبس بالحكمة في القول والسداد في
الرأى فقليل لرجل منهم: ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف
رجل وفينا حازم واحد وكلنا نطيعه فكأننا ألف حازم

وبينما الطفل الانكليزى يشب فى المربى على مبادئ الديموقراطية الصحيحة يعيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له ما لهم وعليه ما عليهم لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كانوا أصغر منه سنًا نجد الطفل الفرنسى يعيش فى حضن أمه ملازمًا لها ملازمة الظل للعود حتى لقد يليها عن العناية بالتزينة والتجمل ويجلس على المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس فيهوش عاينهم ببكائه ويوسعهم من تدلله وصنجه والكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه فعجيب ألا يشب هذا على حب الذات وقلة الاكتراث للتبعات

إذا انتهى طور الطفولة انتقل الأولاد منه الى مدرسة هى فى نظر الانكليز أهم المدارس نفعًا وأنجعها فى نفوس النشء ألا وهى الأسرة

كثير من الأمم يعتقدون أن الخير كله فى معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ويظنون أنه خير مكان يقضى فيه الطفل شطرًا وافرًا من عمره ، أما الرأى العام فى انكلترا فلم يذهب مذهبهم ولم يرد أن ينتهج مسلكا يناقض النواميس الطبيعية وبديهيّات المنطق

يقول الانكليز كيف يعقل أن يكون بيت الانسان
أقل البيئات ملائمة لأولاده ومعاشرته أقل فائدة من معاشرة
الغرباء؟ ألا إن الانكليز يعدون عيباً وعاراً ألا يكون الانسان
هو المدرس الأول لابنه وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة
صالحة للاعداد الكامل للطفل وغرس أصول الفضائل في نفسه
فكأنى بهم يقولون :

« ماحك جلدك مثل ظفرك »

فتول أنت جميع أمرك »

وان كثيراً منهم ليسيون الظن بالمدارس ويرون أنها
أردأ البيئات وأقلها صلاحاً تهذيب الأخلاق لاختلاط السليم
فيها بالأجرب

لذلك لا يبكر الانكليز بفصل أولادهم عن البيت الى
المدرسة الا قبيل العاشرة من عمرهم من بعد أن ينقش على
صحائف أفئدتهم صورة جميلة من البيت وتذكارات الطفولة
لا يزال يطويها وينشرها ويتغفل في نواحي نفسه حب
الوطن مهما بعدت الدار وشط به المزار

فليس عجيباً أن يجمع الانكليزي بين متناقضين : انفاق

زهرة العمر وريعان الشباب مهاجراً متغرباً تشرق به قاصية
الأقاليم كالذين لا أهل لهم ولا وطن يضمهم ، والاغرام في آن
واحد بيته والوكوع بحب وطنه رافعاً عقيرته متغنياً بهما أينما
حل أو رحل

وإذا لم تتمكن الأسرة من القيام بهذا الواجب لأسباب
قاهرة أو كان الأولاد قد نضجت أفكارهم ونزعوا إلى علم أوسع
ومعارف أرق مما يتهيأ لهم في منازلهم وتحت رعاية آبائهم
يرسلون إلى مدارس خاصة (Private Schools) يقوم بشؤون
التربية فيها رجل وامرأته ، أما الرجل فهو من أفضل الناس
رقة حاشية وكمال أدب وكرم عشرة وحسن معاملة فهو ممن
يسمى بالإنجليز (gentlemen)

ولقد أحسن الشاعر العربي في وصف ذلك السرى
المقصود بتلك الكلمة الإنجليزية حيث يقول :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه دائماً

سوى الفاضل النذب الأديب المجرب

تراه بماء اللطف طهر ثوبه

وزين حوَّاه بخلق مذهب

الى هذا السرى الذي اكثر ما يكون أستاذاً من أساتذة
الجامعة (Aggrégé) يدفع الوالد ولده وفلذة كبده واثقاً من أنه
سيتعهد بذور الصلاح فى نفسه ويجعل يومه خيراً من أمسه
ويغرس فى نفسه مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم عالمناً أنه لن
يسمع ابنه معه هُجراً فى قول ولا يرى منكراً من عمل . يقبل
هذا السرى فى داره من عشرة الى عشرين تلميذاً يعيشون معه
ويقوم بتربيتهم واعدادهم للتعليم الثانوى واذا اضطر الى قبول
اكثر من هذا العدد تخلى عن بعض أعماله الأخرى أو استعان
بسرى آخر من اخوانه المدرسين

وأما الزوجة فهى من فضليات النساء تشرف على كل
ما هو قوام للحياة الداخلية من مأكل وملبس وما يتصل بهما
من الشؤون

وهذا الطراز من المدارس كثير الانتشار جداً فى إنجلترا
وتقتصر هنا على ذكر اثنتين منه نضربهما مثلاً لقومنا لعل
فريقاً منهم ينصبون أنفسهم لخدمة بلادهم لهذا النوع من
التعليم وفيه عدا ذلك لهم الحرية والغنى والشرف الدهر كله
أولهما مدرسة (Bowden House School) بالقرب

من (Harrow) وهى تقبل التلاميذ من سن السابعة الى الخامسة عشرة، ويتقاضى استاذها عن كل تلميذ من ٨٠ الى ١٠٠ جنيه فى العام

والثانية مدرسة فى Isle of Wight قام بتأسيسها جماعة من خريجي (Cambridge) واشتروا لها قصر الكونت (Yarborough) وتبلغ مساحته ٧٠٠ فدان انكيزى ولا تقبل هذه المدرسة على اتساعها المفرط اكثر من خمسين تلميذاً

وفىها قسم لتعليم الحياة الاستعمارية (Colonial Life) فيمرّن الاطفال فى هذا القسم على الأعمال الزراعية ويعطون ضيعة يقومون بادارة شؤونها ويعلمون اللغات الشائعة (الحية) وخاصة الهندوستانية، ويمنح الطالب الذى يبلغ سن السابعة عشرة حق اصطيد طيور المدرسة

وشجاعة تلاميذ تلك المدارس يضرب بها المثل

حكى مسيو تين «Taine» فى كتابه «Notes Sura 1. Angleterre» أنه رأى غلاماً صغيراً ممتطياً برذوناً ووراءه أخواته الكبيرات وفيما هم سائرون فى وسط الحقول اذ رأوا ثوراً

صخباً يتطير الشر من عينيه فالتفت الغلام الى أخواته وقال
لهن أيتها الفتيات اتبعننى ولا تخفن مكرورها

مما تقدم يرى ان الدعامة الكبرى التى يركز عليها
صرح التربية الانجليزية انما هى الثقة بالاطفال بمجرد أن
يدرجوا ويفهموا إذ يوكلون الى أنفسهم فى جميع أمورهم : فى
المربى ثم فى البيت ثم فى المدرسة

نعم يشقون بهم فى أعمالهم فيتركون لهم الحرية التامة فى
اختيار السبيل التى يسلكونها بعد إيضاح الجادة لهم وانارة
الطرق أمامهم ، فإذا لم يجيدوا الاختيار فعليهم وحدهم يقع الضرر
وكذلك يشقون بكلامهم فهم صادقون فى حديثهم مصدقون
فى أهلهم وخطأهم الا أن تقوم حجة على غير ذلك

وتلك هى الطريقة المثلى التى هداها اليها المربى الكبير
الدكتور تومس ارنولد من أكثر من نصف قرن كما سذكركه
بعد وهم يدينون بها ويحرصون أشد الحرص عليها . والغرض
الذى يرمون إليه من اتباع هذه الطريقة هو تعويد أولادهم
النشاط فى العمل والصراحة فى القول والاستقلال فى الرأى
والدربة على الثقة بالنفس والاعتماد عليها وإيقاظ الشعور

بالتبعية فيهم وقدرهم اياها منذ الصغر قدرها فهم واثقون
بأنفسهم وجديرون بالثقة فيهم :

They are self reliant and reliable

هذه هي أهم الفضائل التي يجهز الانجليز بها أبناءهم للنزول
الى معترك هذه الحياة لان الولد أولا لا يعتمد على ميراث من
أبيه الذي خوله القانون حرية التصرف في أمواله وكثيرا ما قد
يأتى على رأس المال

والأب الانكليزى من جهة ثانية لا يرى حقاً عليه الانفاق
على أولاده وتعليمهم الا الى سن السادسة عشرة من أعمارهم ثم
يتركهم لأنفسهم ويلقى جبلهم على غاربهم ما عدا البكر منهم
وان كان ذلك في غير الاسر العالية والعشائر الغنية

لهذا وذاك ينزل الشاب الانكليزى الى ميدان الحياة
وليس يخامر فكره أقل شك في أن عبء حياته كله ملقى على
عاتقه وان سعادته معلقة على جده وسعيه وان ليس له سلاح
إلا الاعتماد على نفسه

فهو مسوق الى العمل بقانون الضرورة مضطرا الى السعي

بحكم الحاجة ، والحاجة تفتق الحيلة

ومما يجدر بنا ان نلاحظه ولا نُغضى عنه أن أخذ الانكليز أنفسهم بالتربية على هذا الوجه من المغالاة في الاعتماد على النفس والاعتداد بالذات « Individualism » من شأنه أن يضعف الرابطة القومية فيهم

لذلك كانت الأسرة الانكليزية محصورة بين جدران البيت منتهية بانتهاء حدوده فلا يكاد الانكليزي يعرف ذلك الجيش الجرار من ذوى قرابته وأولى رحمه من الأعمام والأخوال والعمات والأخالات ومن يدلى اليهم بسبب أو يمتنون اليه بلحمة النسب وهو يقول في أولاد العم : ما نفع أبناء الأعمام إنهم لأصدقاء ثقلاء وان الصديق الحق هو من وقع عليه اختيارك واصطفيته لنفسك

وان مثل الحكاية الآتية لبرهان على صحة ما نقول :
تقطن مدينة لندن أسرة إنكليزية مؤلفة من أب وأم وابنتين ويتم اعضاء هذه الاسرة ابنان انفصلا عن محيط دائرة المنزل يحترف أحدهما مهنة الزراعة على بعد نصف ساعة من لندن ويتجر الثاني في الماشية ببلاد الناتال فمر على الأول ستة أشهر كاملة لم يَخْدُ به الشوق أثناءها الى أن يزور أهله

بمدينة لندن على قرب مزارهم منه :
وأقرب ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديارُ من الديار
أما الثاني فكان مبلغ ذكره وحنينه الى أهله ان يكتفى
في كل عام بكتاب واحد يبعث به الى أمه أعطف الناس عليه
وأبرهم به ، وكذلك كانت حال سائر الأسرة المقيمة بلندن فان
البنتين على رقة عواطفهما كانتا اذا جرى بينهما الحديث عن
أخويهما البعيدين عنهما لا يبدو منهما ما يدل على انهما
متألمتان لجفأهما متأثرتان من عدم مكاتبتيهما

المحاضرة الثانية

التعليم الثانوى

إذا بلغت سن الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وأصبح بفضل المِران في البيت أو المدرسة الخصوصية والدربة على العمل فتى قادراً على احتمال معايشة الغرباء ودفع أذى الخلطاء ألحق بالمدارس الثانوية وتسمى عندهم بالمدارس العامة

«public Schools»

وهى كثيرة غير ان المشهور منها تسع وهى :

Eton. Harrow, Rugby, Wellington, Winchester, Westminster. Charterhouse etc..

وقد امتازت هذه المدارس بتربية ابناء الطبقات الحاكمة والاسر الغنية فأخرجت بامرستون وغلادستون وأمثالهما من نوابغ الانكايكز وكبرائهم

وهذه المدارس التسع هى التى نفذت فيها لاول مرة طريقة الوصاية التى هى أساس التربية الانكايكية

وانى لا يسعنى فى هذه العجالة الطوافُ بتفاصيل كل
واحدة منها لان هذا يستغرق عدة محاضرات
لذلك أقصر الكلام على احداها وهى مدرسة Rugby
لا حرازها قصب السبق فى ادخال اصلاحات هامة فى التعليم
الثانوى فى انجلترا بفضل نبوغ ناظرها الحكيم الدكتور
تومس ارنولد

والغرض الاول من التربية فى هذه المدارس هو إعداد
الطفل لأن يكون فى المستقبل رجلاً شريفاً شجاعاً ووطنياً عاملاً
ومن المثلىين الآتين يتبين مقدار الارتباط بين طلاب
المدارس وذلك الغرض الجليل :

(١) كتب أحد الطلاب بمدرسة Rugby فى صحيفة
المدرسة السنوية مقالا جاء فيه : اننا معشر الطلاب نكون
اجتماعاً حقيقياً نعيش فيه لا نتعلم فحسب بل لتتعلم ونعمل
ونحيا كأطفال سيكونون فى الغد رجلاً

(٢) وقال توم بروان فى كتاب «Tom Brown School days»

(حياة توم بروان المدرسية) وهو كتاب وضعه أحد خريجي
هذه المدرسة أتى فيه على حياة الشاب الانجليزى من بداءتها

في المدرسة الى دور الزواج وهو كتاب كثير الانتشار بين المتعالمين في انكلترا وكل واحد منهم يقرأ فيه صفحة ما ضية من حياته الخصوصية وصورة مطوية من تذكاراته المدرسية قال في أول الكتاب إنه وصل الى المدرسة في الساعة الثالثة

بعد الظهر راكباً عرباً (لأن ستة الخطوط الحديدية التي تتقاطع الآن في Rugby لم تكن أنشئت بعد) وبعد أن استقر به المكان تذكر النصائح التي ألقاها عليه أبوه قبل مغادرته البيت وكذلك تذكر مصاحفته اياه باليد لأول مرة في حياته بدل التقبيل الذي من العادة أن تحيي به الأطفال وفي ذلك رمز إلى أن الذي يسلكه أبوه في المدارس العامة رجل ينبغي أن يُحْيَا بتحية الرجال

أما تلك النصائح التي زوده بها أبوه فانها آية في الحكمة وغاية في السداد فقد قال أبوه : اني ترددت طويلا في اختيار الكلمة التي أجعلها له عظة ماثلة بين عينيه في سفره فقلت في نفسي :

إذا أنا نصحت له باجتنب ملهيات الطريق وضبط النفس من الوقوع في المفاسد فربما لا يفهم لما أقول معنى وعلی

بذلك اكون نهته الى ما كان مصروفاً عنه واذا نصحت له
بالجد في الدرس والتشمير في تحصيل العلوم ليصبح عالماً فليس
ذلك غرضي أو بالحرى ليس ذلك الا جزءاً من الغرض
الأكبر الذي أنصبه له وأتمنى أن يناله

وبعد خواطر جالت ثم زالت وقع في نفسي أن أوصيه
بأن يكون رجلاً شجاعاً شريفاً نشيطاً وطنياً سرّياً مسيحياً
« Christian Gentleman » ولا أتمنى له المزيد

من هذين المثليين يتبين أن الغرض الأول من التربية
الانكليزية انما هو تكميل النفس بالفضائل العالية وتحليتها
بالأخلاق الكريمة. أما تكوين العقل وثقيفه بالعلوم والمعارف
فليس الا جزءاً من ذلك الغرض الأسمى فهم أحق من يتمثل
بقول شاعرنا :

وانما الأم الأخلق ما بقيت

فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

والآن أرى من الواجب أن أقول كلمة عن ذلك المربي
الكبير الدكتور تومس ارنولد الذي كان ناظراً لهذه المدرسة
أربع عشرة سنة حارب في خلالها كثيراً من الطرق العقيمة

التي كانت متبعة في المدارس الانجليزية ونجح في وضع مبادئ
جديدة حازت الرضا من الانجليز عامة وسرت من مدرسته
الى سائر المدارس الأخرى

واذا تناول البحث مسألة التربية والتعليم في إنجلترا فانهم
يبدءون باسم تومس مقروناً بالاجلال والاحترام ومع أنه قد
مضى على وفاته نحو ثمانين سنة فهم لا يزالون الى اليوم يقدسونه
ويعظمون ذكره كما كانوا يقدسونه في أول يوم بدا لهم فيه سر
إصلاحاته الحكيمة التي لم يسبروا غورها البعيد الا بكر
الأيام ومر الأعوام

كان تومس ارنولد في أول أمره قساً خامل الذكر ذا
روح متوقدة وغيره مشتعلة ظل يجاهد في سبيل التربية زماناً
دون ان يشعر بنبوغه أحد وكان ذا نظر ساحر يقرأ في
الوجوه ما تكنه الضمائر فكان لا يقوى أحد ان يكتمه أمراً
او يخفي عنه سرّاً هذا الى انه كان ذا تأثير يشبه تأثير المغناطيس
فكان لا يجتمع به أحد الا اجتذبه اليه وسحره بتعاليمه وقد
قرأت في دائرة المعارف الانجليزية انه لما خلت وظيفة ناظر
مدرسة Rugby سنة ١٨٢٨ طلب الى مجلس ادارة هذه المدرسة

الالتحاق بها وشفعه بشهادة قال كاتبها : اذا وقع الاختيار على المستر ارنولد فانه سيغير وجه التربية ويقلبها رأساً على عقب في جميع المدارس العامة في انجلترا وهالك النص الانجليزي :

« If Mr. Arnold Were elected he would change the face of Education all throug the public Schools of England »

ولقد صدقت فراسة ذلك الكاتب في ارنولد وكأني به

يقول له بلسان البارودي :

وَفَيْتُ بِمَا ظَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ

وقد بقي يعالج تربية النشء بما أوتي من حذق ومهارة ويبت فيهم روحه ومبادئه الجديدة حتى أخرج لبلاده فتياناً شداداً نافعين ورجالاً قادة كانوا هم أبلغ اعلان لفضله وعلو كعبه واكبر عامل في إذاعة صيته في اركان البلاد الانجليزية وكان تومس ارنولد من ذلك الصنف من الشبان الذين يهتمون بالشؤون العامة كل الاهتمام ويتبعون سير الحوادث في بلادهم بكل نشاط وامعان فكان لا يكاد يمر يوم الا ويؤلف في التاريخ (تاريخ الرومان) ويكتب المقالات الرائقة في

المجلات العلمية ويكتب الجرائد السياسية ثم يجد مع هذا
من الوقت ما يكفي لإدارة مدرسته إدارة حكيمة

وكان يقول في هذا الصدد اني كلما شحذت ذهني
بالمسائل الخلقية وجلوته بالمرانة على الكلام في أهم الامور
السياسية عاد ذلك بالفائدة الجمّة على مدرستي

وفي سنة ١٨٤١ وصله كتاب من اللورد ملبورن رئيس
الوزارة اذ ذاك يعرض عليه وظيفة مدرس للتاريخ الحديث
في جامعة أكسفورد فقبل شاكراً وفرحاً لذلك فرحاً شديداً
وأقبل الطلاب على درسه اقبالا وكانوا يتنافسون في الحصول
على مذكراته وطبعها ونشرها بين الناس

ولكن مع الأسف لم تدم سعادة الطلاب به طويلا
فما هلت سنة ١٨٤٢ حتى وقع غير المنتظر وحدث ما ليس في
الحسبان وفوجئوا بنبأ وفاته بذبحه صدرية لم تمهله الا بضعة
ساعات بُذِلَ له في خلالها كل اسعاف وكل علاج ولكن
ماذا يفيد العلاج اذا حم القضاء وجاء الأجل

وقد استولى الهلع على طلاب المدارس الذين كانوا يتفانون
في حبه وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن رحي العمل في المدارس

هل ستظل دائرة بعد أن وقف محرکها الا کبر وخفت صوت
سائسها الحکیم وإنا نذكر هنا طرْفًا من آرائه السديدة في
التربية فنقول :

(١) ليس من مذهب تومس في التربية مراقبة الأطفال
مراقبة دقيقة وقد قال في ذلك انى أريد أن أعلم الأطفال أن
يحكموا أنفسهم بأنفسهم وذلك لعمرى خير من أن أحكمهم
بنفسى

ذلك قولٌ حكيم وفكر ثاقب يجب أن يتدبره ويفهم
مغزاه أولئك المربون الاتوقراطيون الذين يحاسبون الأطفال
على الهمسة ويعاقبونهم على الالتفاتة ويريدون أن يقبضوا
عليهم بيد من حديد

يقول تومس انولد إن هؤلاء واهمون في فهم رسالتهم
اذ ليس الغرض من التربية أن تُخرج عبيدًا ضعافًا أذلاء بل
الغرض أن نخرج سادة أحرارًا كبار النفوس يتمتعون بالرأى
والحرية التامة في كل مانعرضه عليهم من الاعمال . وإن سلبهم
هذه الحرية أو محاولة سلبهم اياها لهو عين الخطل والخطر
فلندع الاطفال ينفردون بانفسهم ويخلون بماحولهم ويصرفون

قواهم ويجولون فيما بين يديهم من الأشياء ليتعرفوا السلطة
ويدوقوا طعم الامارة ويشعروا من نشأتهم بالتبعة التي هي
دائماً قرينة الرياسة ولازمة لها

(٢) حدث في المدرسة مرة اضطراب أفضى الى ابعاد
بعض الطلبة فقام تومس نخطب فيهم خطبة شهيرة سُجلت له
في تاريخ التربية قال :

ليس من الضروري أن يوجد بالمدرسة ٤٠٠ طالب ولا
مائة ولا خمسون ولكن من الضروري الا يوجد بها الاسادة
مهذبون Gentlemen

فكانت خطبته هذه على قصرها برهاناً صريحاً على فساد
الرأى السائد إذ ذاك في فرنسا وانجلترا القائل بان المدارس
تصلح الطبائع الفاسدة وهو رأى عقيم لانه يجعل المدرسة
ملجأ لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج أو يجعلها بؤرة عفنة في
نظر الأخيار الصالح من الطلاب

وكان هذا الرأى فاشياً الى حد ان آباء الطلبة كانوا
يعتقدون انه ليس للمدرسة حق في طرد ابنائهم منها إلا إذا

ارتكبوا أغلاطاً جسيمة أما تومس فكان لا يرى رأيهم وقد
كتب العبارة الآتية:

إن أول واجب على كل ناظر مدرسة أن يتخلص من
الطبائع العقيمة

قال يتخلص (to get rid) ولم يقل يطرد أو ينفي
واستعمل كلمة الطبائع العقيمة (unpromising) تنبيهاً على أنه
ليس من الضروري أن يرتكب الطالب هفوة ليبعد عن المدرسة
بل يكفي أن يظهر من اختبار غرائزه أن وجوده في المدرسة
لا يفيده وقد يضر غيره بالاحتكاك والمخالطة

ولذلك كان تومس اذا ظهرت له أعراض تلك الطبائع
يكتب رجاء الى والد الطالب أن يسحب ولده من المدرسة
والذى يتأمل كلام تومس فى هذا المعنى يرى أنه ينصح بأخراج
رجال نابغين ولو لم يتجاوزوا الأصابع عدداً بدل اخراج عدد
عديد من المتوسطين من الرجال أو بعبارة أخرى أنه يفضل
أقلية عالية ممتازة عن أكثرية منحطة أو متوسطة

وهذا بعينه هو قانون تنازع البقاء القاضى ببقاء الأصح

أو الأنسب Natural Selection الذي كان ينادى به دارون
و«هو كسلى» فى الأنواع الحيوانية والنباتية

يريد أن تولد أيضاً أن يطبق هذا القانون على التعليم حتى
لا يخرج من المدارس إلا النابغون الفضلاء الصالحون للبقاء

(٣) رأي فى التربية البرية .

كان يقول ان جثمان الأطفال يجب أن يكون مجالاً قوياً
لثوران غرائزهم وجولان عقولهم وإن التعجيل عليهم بطلب
التحصيل وشحن قرائحهم بمسائل العلوم قد يودى بغضاضتهم
ويُطفئ البادرة فيهم ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى
وبالاشراً عليهم من سبق عقولهم لا بدانهم وغلبتها عليهم
ولذلك كان يحرض على الرياضيات الجسمية ويغلو فى الذهاب
بها والتعريف بمكانها فكان وهو ناظر لمدرسة Laleham وهى
مدرسة خصوصية يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج
معهم يترامون جميعاً بكرات الثلج ويسبحون فى الماء
ويتسابقون بالجذف فى الزوارق

وكذلك كان لما عين ناظراً لمدرسة Rugby من اكبرهمه
 أن يأخذ التلاميذ بالرياضة أخذاً ويأمرهم بها أمراً لا يألو جهداً
 ولا يدخر وسعاً لانه كان يشعر جيداً بأن كل طفل سيأتي
 عليه وقت يجتاز فيه لجة من سورة الشباب وعاصفة من
 جنون الصبا تثب عليه فيه الغرائز الرديئة والشهوات الحيوانية
 ولن يصبر لهذه الحملة الا بنجدة من قوته ومنعة من بدنه

ان العقل بنموه وتسلط نزعاته وتفرق خواطره يحتاج
 كالبحار الى أديم منيع وجسمتين يحمل ضغطته ويقاوم تسلطه
 هنا يجب ان أقول إنه عرضت لى اثناء اشتغالى بتنسيق
 هذه المحاضرة حاجة الى التمثيل بيئت أبى الطيب المتنبى :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الاجسام
 كان تومس ارنولد يقول إني أريد ان أجعل من الطفل
 رجلاً من الوجهتين البدنية والخلقية وهو لا يزال فى طور
 الطفولة حتى يصبر لهجوم تلك الغرائز وينتصر عليها لذلك
 ترى الفتيان الانجليز يبلغون منتهى نمو الجسم وهم فى سن
 الثامنة أو التاسعة عشرة مع ان النمو الطبيعى للجسم لا يتم عادة
 الا فى سن الثلاثين فكان كل هم ارنولد فى المدارس الثانوية

الاسراع في أن يربي للطفل عضلات قوية وجسماً متيناً ليضع فيه
نفساً بسيطة جريئة حرة مستقلة معتمدة على ذاتها ومجموع تلك
الصفات هو ما كان يسميه بالرجولة الصحيحة (True Manliness)
وكان يقول ان غرس بذور تلك الصفات في نفوس الأطفال
من حداثة سنهم خير من محاولة وضع معلومات عامية في
تلك الأدمغة الصغيرة تنسى بسرعة لأنها وضعت فيها
قبل الأوان

والرجل الذي هذه آراؤه في التربية البدنية كان عضواً
في جمعية الرياضة البدنية المسيحية (Muscular Christians) وكان
الغرض الذي ترمى اليه هذه الجمعية خدمة الجسم وتقويته إلى
أقصى حد مستطاع لا للتباهي به أو استخدامه في قضاء ما رُب
شخصية كما كان الحال في الجمعيات الأخرى بل لغرض أُسمى
وأرفع وهو

حماية الضعيف ونصرة العدل في العالم أجمع وفتح الدنيا
ووراثتها الأرض ومن عليها وكانوا يقولون :

انا نريد ان ننصب أنفسنا لخير الانسانية ابتغاء مرضاة

الله فأول ما نقرضه على انفسنا ان نكون أقوياء السواعد أَعْزَاء
الجانب

ومن وصايا قوم براون لإخوانه :
يأيها الشبان اتقوا الله وسيروا سيراً عفيفاً ولا تتعرضوا
للمرض فإن في المرض مضيةً للوقت والوقت من ذهب والسير
السريع يقوى البدن ويشفي كثيراً من الأمراض
شكا عمرو بن معدى كرب المَعَص إلى عمر بن الخطاب
رضي الله عنه فقال : كذب ^(١) عليك العسل ^(٢) أى عليك
بسرعة المشى والمَعَص التواء في عصب الرجل
أما آية الانجيل «مَدَّ خَدَّكَ الْإِيمَن لِمَنْ يَلْطَمُكَ عَلَى خَدِّكَ
الْأَيْسَر» فقد نسختها آية أخرى أصبحت شعاراً للأمة
الانجليزية وهي :

فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
وتعلموا الملاكمة فقد تحتاجون إليها يوماً (على أنها

(١) كذب هنا بمعنى وجب (٢) والعسل سرعة المشى من عسلان الذئب

الطريقة المستعملة في فض ما عساه ينشأ من الخلاف بين
الفتيان الانكليز)

أما المبارزة فاجتنبوها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ولكن
إذا دعيت إليها وصدفت عنها لفضل دينك فذاك ، أو لأن هذا
عمل لا تحب الدخول فيه فمقبول ، ولكن حذار أن ترفض
النزال محتجاً بالدين والحقيقة أنك جبان يراع فهذا ليس من
الدين ولا من الشرف في شيء

وإذا وضعت قدمك في الحرب فسر فيها إلى النهاية ولا
تدع بلاء إلا أبليت في خصمك ولا حيلة إلا احتلت بها له
ولا تقلعن عنه وفيك عرق ينبض ونفس يتردد

ولقد أراد تومس ارنولد برأيه في التربية البدنية وإثارة
الناس إلى العمل بمذهبه فيها أن ينتاش الأمة الانجليزية من
حال سيئة كانوا عليها إذ كانوا إلى سنة ١٨٢٠ منهومين
بالطعام والشراب مسرفين في الإخلاد إلى الراحة والسكينة
سماناً غلاظاً عرضة للسكتات القلبية ، والرسوم والتاريخ
أعدل شاهد

ظلت أفكار تومس تختمر في رؤوس الانجليز رويداً
حتى هبوا من سباتهم وأفاقوا من رقدتهم وما جاءت سنة
١٨٦٠ حتى دانوا بالترية البدنية وأغرموا بحب الألعاب
والرياضات واشتدوا في ذلك اشتداداً لم يسبق له مثيل إذ آنسوا
من فرنسا يومئذ أهبة واستعداداً ظنوا معها ان الحرب بينهما
واقعة لا محالة

فقام هربرت سبنسر ووضع قدمه في الميدان. وجهر بأعلى
صوته أنه يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء
أن يكون حليف النجاح في هذه الحياة. وان الأمة التي تريد
أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من
رجال كالحيوان أو أشد منه قوة. وأن الاحتفاظ بالعافية .
والحرص على السلامة من العلة فريضة محتمة وقضية مسامة .
وما هو إلا ذاك حتى سار على أثره العلماء والحكماء والأطباء
والفلاسفة صارين على هذه النعمة . قائلين بهذه السنة . ناصحين
للجميع باعتناق الرياضة البدنية ، والعناية بالصحة ، والأخذ
بأسباب القوة من الحداثة إلى الكهولة ، وفي الحل والرحلة وفي

كل مكان ، ولكل أحد . وقد قال الدكتور كليمان ديوكس
 إن قوة الأمم واقتراد أفرادها على العمل يتوقفان على صحة
 أبدانهم . واطراد تمرينهم على الرياضات الجسمية . ومراس
 الأعمال البدنية . فثارت الأمة بأسرها وفي طليعتها طلبة
 المدارس والجامعات والأعيان . وانشئت الحمامات في البيوت
 والمدارس والأسواق العامة واختطت حقول واسعة ملاعب
 للتنس والكريكت . وغطى سطح البحر بزوارق السباق
 وملئت الشوارع بفرق الكشافة والمتطوعين ووطد كل النفس
 على العمل على تربية عضلاته والفرار من السمن فراره من
 الموت ومحاربتة محاربة الوباء . وقد جعلوا هذه الألعاب الرياضية
 كمدارس منظمة يتعلم فيها الأطفال الرزانة والثبات . والنظر
 الصحيح إلى الأشياء . وقوة الحكم عليها . وتقوّم سجية
 الاحترام فيهم . وان في طاعتهم لرئيسهم (الكاتبين) عن
 خيرية من أمرهم . ورغبة من أنفسهم لدليلاً على تقديرهم
 السلطان المخول للأقوى . والرياسة الممنوحة للأكثر تجربة
 وخبرة . وتكون تلك الألعاب في الهواء الطلق . في مجالى

الطبيعة . فى الأغوار والآنجاد بين الأنهار المطردة . والأطيار
المغردة . وبذلك الجهد البدنى القوى يطهر الجسد من السموم
المتخلفة من الحياة الجلوسية . ويصلح الدم الذى أفسده هواء
المدينة . أضف إلى هذا أنها محت من طباعهم كل ميل إلى
الإسراف فى الأكل والشرب ، ولا صحة مطلقاً لما قد يتوهم
البعض من أنهم يأكلون أكثر من غيرهم فان ما يأكله
الانكليزى فى اليوم على دفعات يأكله المبطنون منا فى دفعة
واحدة

سأل عبد الملك بن مروان أبا المغور هلا اتخمت قط قال
لا قال فكيف ذلك قال لأننا اذا طبخنا أنضجنا واذا مضغنا
دققنا ولا نكظ المعدة ولا نخليها

تلك هى الفضائل التى يجنيها الانجليزى من الألعاب
يتعودها فى المدرسة من صباه . وتلازمه لزام الظل مدى
الحياة . وأثر هذه الألعاب فى الأخلاق على النمط السابق ظاهر
لا ينكر . قال به جميع المربين الانجليز بلا استثناء . وتواصوا
به ، وأغروا الناس باتباعه ، حتى سرى حب هذه الألعاب فى

دمائهم. وتمكن من نفوسهم لا يثنون صدورهم عنها من كبره
ولا يذرونها من عمى. وهذا مستر فوست Fawcett فى أخريات
قد ذهبت عيناه وكان مع ذلك يتزج ويركب الخيل. وأتوتى
ترولوب وقد لوت الشيخوخة من عوده كان يحضر جواده
ليصطاد الثعالب. ويعرف كل انجليزى ما كان من أمر
بامرستون وكلفه بالذهاب الى ميدان سباق اسوم (Epsom)
إذ كانوا يرفعونه الى ظهر فرسه بجهد وتعب. فاذا استوى
عليه نسى شيخوخته وملك عنانه. وأمن حرائه
إذا أنا أطنبت فى الرياضة البدنية واهتمام الانجليز
بها ذلك الاهتمام وإعظامهم اياها ذلك الإعظام وأخذهم
بها من المهد الى اللحد فلقد كانت من أهم العوامل فى نهوضهم
وتطورهم ذلك التطور الذى أدهش العالم بأسره

قال مسيو Pierre de Coubertin :

« ما كان الانجليز من مائة سنة خلت بل ولا من ستين
على ما نراهم عليه الآن من شدة تمسكهم بعاداتهم ونشاطهم
فى الخارج وسهولة انقيادهم الى حكاهم وتقانيهم فى حب
وطنهم

ولكنهم هبّوا من رقدتهم ونشطوا من عقالهم وقطعوا كل صلة بالماضى وبنوا لأنفسهم ذلك البناء الشامخ وهذا المجد الطريف الذى لم يشهد العالم مثله ولا ريب عندى فى أن للتربية الصحية المؤسسة على الرياضة البدنية الى أقصى حد مستطاع وللحرية الحقيقية التامة دخلا كبيرا فى هذا الانقلاب العجيب

ذلك وأما الفرنسيون فكانوا يسخرون من هذه الرياضيات الجسمية. ويعتقدون أن العناية بانماء جسوم الأطفال وتعمد الأبدان بالتقوية مفسدة للأطفال أى مفسدة إذ يقولون إن المادة هي معين الشر وعتاد الفساد. وأن صفاء البصيرة وبلوغ الأرواح درجاتها من الكمال انما يكون باهمال الجسم وكسر شرته. وإضعاف حيوانيته وقد غلب سكال أحد فلاسفتهم فى مذهب المتصوفة الى حد أنه كان يلبس شعاراً من شعر خشن كرموس الابر على جلده خيفة أن يخذعه الترف أو تلهيه الراحة. واكثر من ذلك أنه كان يشد على وسطه نطاقاً من مسامير دقيقة خيفة أن يشعر بلذة التوفيق الى

استنباط حل قضية من الهندسة وكان أبها مولعاً . وعليها مكباً .
فكان مذهبه في قول القائل

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

ولم يُقلع الفرنسيون عن احتقار الرياضة البدنية والزراية
على من كان يجلبها من التلاميذ الا من عهد غير بعيد

مذهب في التربية

لندع الآن ضرب الأمثلة . وسرد الحوادث المختلفة . الى
البحث في الخطة العامة التي جعلها تومس ارنولد أساساً لمذهبه
في التربية فنقول :

كانت المدرسة في نظر ذلك المربي العالم كدار كبيرة من دور
القضاء يتدافع فيها سيلان من القوة الهادية إلى الخير الصادرة
عن قضاة هذه الحكومة وهم الناظر والمدرسون ومن المقاومة
العشواء من التلاميذ الذين يرادون على الإنابة الى القانون والمضى
في سواء السبيل . وكانت الحكمة والحيلة والبلاء الحسن الذي
يبدله أولئك المدرسون هي القوة التي يجب أن تكون لها
الغلبة لتحسن الحال . وتلين شكيمة الأطفال . ومن أجل ذلك

كان من الكياسة منح نصيب صالح من هذه القوة للجهة التي تنشأ منها المقاومة بتسليط عدة من زعمائها وامكانهم بقدر من الحكم تأليفاً لهم واستظهاراً بهم على من عداهم من الأطفال وذلك بعينه هو أحد مظاهر المبدأ الانجليزى العام الذى يمكن تصويره فى مثل آخر . وهو أنه لضمان النجاح فى تقرير حال على ما هى عليه . أو المحافظة على سلامة نظام قائم فى نفسه . لا بد من إغراء الناس به وحملهم عليه وتزيينه فى أعينهم حتى يكون فتنة لهم ويكونوا هم حماة له . وشيعة على المتسكين عنه : وقد كان الرجاء فى تطبيق مبدأ اجتماعى كهذا على جماعة من الأطفال غير كبير لما لا يخفى على الذين مارسوا التعليم وخبروا غرائز الأطفال وسبروا خفة أحلام الشباب . غير أن تومس أرنولد لم يحجم لحظة عن العمل بذلك المبدأ فى مدرسته . وهى جرأة لن يُقدم عليها إلا من عظمت ثقته بعلمه وعمله وقوى اعتماده على نفسه ومقدرته . وقد نجح تومس فى ذلك نجاحاً باهراً فوضع الثقة فى المدرسين والمتقدمين من التلاميذ فى الفرقة السادسة واقامة المدرسين أوصياء على التلاميذ وعهد إلى كل واحد منهم مراقبة زمرة من التلاميذ

الخارجية . ورياسة بيت من بيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة (Boarding Houses) لاتكاد عدتهم تجاوز الثلاثين . يسكنون معه في داره ويأكلون على مائدته ويظلون في وصايته سبع سنين يدرس فيها طباعهم . ويسبر غور خواطرهم فيرشدهم عقولهم إلى الصواب ويهدي قلوبهم إلى الخير . حتى يصل بهم إلى أقصى ما يستطيع من الرقي والكمال . وقد كان التلاميذ الداخلية من قبل في عهدة أناس مُقاولين ليسوا من أمور التريبة في شيء فوضعوا الكسب المادى نصب أعينهم وتركوا حبل التلاميذ على غاربهم فيما هو من التهذيب والتعليم حتى ساءت الحال واضطرب النظام وانحط مستوى الأخلاق وقد خول تومس تلاميذ الفرقة السادسة سلطة تامة على تلاميذ الفرق الأخرى وعينهم معيدين ومن أفضل عملهم مساعدة المدرسة على حفظ النظام وتوصيل المبادئ القويمة إلى إخوانهم لأنه لم يكن يرى رأى معاصريه في ترك الأطفال يستقلون بأمورهم إلى حد أنهم يواجهون الحوادث بأنفسهم ويتصرفون فيها وحدهم خيفة أن تفسد مبادئهم وتهجن عاداتهم وهم في هذه السن قلما يميزون بين النافع والضار والحسن والقبيح .

ولذلك جعل المتقدمين منهم وسطاء بينهم وبين المدرسين
ينقلون اليهم التعاليم الصحيحة وينشرون فيهم المبادئ العالية
ويحببون اليهم الأخلاق الفاضلة ويكونون هم البادئين بالعمل
بها والقائلين لآخوانهم هلم إلى تقليدنا والنسج على منوالنا
كان تومس يقول إن مثل هؤلاء المساعدين كمثل ضباط
الجيوش البرية والبحرية إذا وثقت منهم فليس في انكثرا
وظيفة أوترها على وظيفتي وإذا لم أثق بمعونتهم فلاستقالة
محتمة . ويخيل لى وأنا أنقل هذا عنه انى أمام رئيس حكومة
يتكلم عن وزرائه وكذلك كان تومس يكثر الاجتماع بهم
ويدعوهم إلى شرب الشاى معه يخوض فى الحديث معهم
ويحاسبهم على الفعلة من أفعالهم والكلمة تخرج من أفواههم .
فكانت هذه الاجتماعات مدرسة ثانية للتفكير فى الحياة
والاستقلال فى الرأى والتقدير للعاقبة مع احترام المبادئ
المرسومة والقواعد المقررة . وكان الغرض الذى يرمى اليه
تومس من وراء ذلك هو تعويد التلاميذ حكم أنفسهم من
حادثة أسنانهم على قواعد العدل والتروى والحكمة . لأنهم
بعد المدرسة سيقلدون المناصب ويتسلمون زمام الأحكام إذ

كانوا من أبناء العلية وأهل الولاية

وكان لهم عدا ذلك اجتماعات أخرى في المدرسة يمرنون فيها على الخطابة (Debating Societies) والخوض في فنون شتى من القول على ما يترأى لهم من سياسة ومن أدب وتاريخ وإذا كانت الخطابة في شأن سياسى أخذ الاجتماع صورة مجلس نيابى صغير تجرى المناقشة فيه على التقاليد والرسوم النيابية ويتنادون فيما بينهم بنائب مقاطعة كذا وحضرة العضو المحترم كما يفعل النواب الكبار والوزراء يجعلون ذلك ذريعة لدراسة بلادهم ومعرفة مواقع أملاكهم . فقد كان المتكلم منهم عن اقليم ما يجب عليه أن يلم الملماً بأحوال ذلك الاقليم تجارية كانت أو اقتصادية أو صناعية أو زراعية أو غيرها . وكان الوزراء منهم يجلسون أمام المعارضين الذين كثيرا ما كانوا يسقطونهم وكان رئيس الوزراء هو الذى يفتح المجلس وهو الذى يعلن انفضاضه

حدثت مسيو دى هبئر (M. de Hubner) النمساوى أن حرية المناقشة في تلك المجالس كانت بالغة غايتها حتى في غير انجلترا من البلاد التابعة لها . قال دخلت مرة إحدى الكليات

الهندية والطلاب يتناقشون في حفلة من هذه الحفلات في موضوع غريب وهو : أليس الأفضل للهند أن تتخلص من النير الانجليزى وكان المشرفون عليهم من الأساتذة الانجليز ومع ذلك لم يقيم منهم من ينكر ذلك القول

يقول دى كوبرتين الفرنسى إننا معشر الفرنسيين لا نستطيع أن نسمح لطلابنا بمثل هذه الحرية لأن اختلاف الرأى عندنا يؤدى الى شحناء قد تسوء عاقبتها أما عند الانجليز فمجالس الخطابات يذنبهم هى بساط يطوى بما فيه . ولقد يكون الرجل من حزب وابنه من حزب معارض له وليس لهذا الخلاف أقل أثر فى رابطة الاسرة التى بينهما

وانى لأرى أن تفوق الانكليزى فى هذا المضمار يرجع الفضل فيه الى كثرة المِرانة وطول المِراس فقد أخذوا أنفسهم بحريّة المناقشة منذ نعومة أظفارهم فصارت لهم عادة راسخة فى كلّ اطوار حياتهم وصارت صدورهم رجة لقبولها بدون أن تؤثر فيها أو تنال منها فلقد يتسع مجال الجدل بين اثنين منهم يتباعد آراؤهما ويختلف مذاهبهما فلا تجد من كلا المتناظرين إلا صدراً فسيحاً وأناة طويلة وقبولاً لكل ما يتحرّك به لسان صاحبه

أبين نحن من كل الفريقين في حرية المناقشة

إذا أحسنّا الظنّ بأنفسنا قلنا إنّنا كالفرنسيّين في هذا الموضوع ولكن لا نكذب الحقيقة إذا قلنا إنّنا أشدّ منهم تطرفاً في تقييد المناقشة وأضيق مجالاً لقبول صراحتها وإطلاق العنان لحرية الرأي فيها ، فانك لتجد المناظرة بيننا مطوّقة بأغلال المجاملة أعناقها، مغلولّة بقيود الاحتراس أيديها، فإن يداً لأحد المتناظرين أو لكليهما أن يفكّا عنهما رُبّة تلك المجاملة ويُطلقا أنفسهما من قيود كتمان الرأي الصريح والافضاء بالفكر الحر فقاما تنتهي مناقشتها بسلام وما ذاك إلاّ أنّنا لم نعوّد أنفسنا الصراحة الكاشفة في المجادلة ، ولم نأخذها بالتمكّن من معرفة أساليب المناقشة وآداب البحث والمناظرة وجدير بمن يريدون أن يتبوّءوا مراكز الرياسة ويضعوا أنفسهم من الناس موضع الزعامة أن تتسع صدورهم للمناقشة وتطيب نفوسهم لسماع الانتقاد والاصغاء إلى ما قد يخالف آراءهم ليستشفوا بواطن الصدور ويحترقوا حجب الضمائر ويقفوا على ما تنطوى عليه قلوب النّاس من مختلف الآراء

وشتى المذاهب، ويعرفوا أنَّ الألسنة ترجمان الأفئدة فلا ينبغي أن يعقلوها ، وأنَّ الصدور هي مقرّ الحرية فلا يضيقوا ما فسحه الله منها ، فإذا نحن أغلقنا صدورنا دون قبول ما تأتى به صراحة المباشرة وحرية المناقشة فقد جنينا على الحرية جناية لا غفران لها

ولقد كان لنا في خيرة سلفنا أسوة حسنة وقُدوة صالحة لمن كان يريد سعة الصدر وإطلاق حرية الفكر ورياضة النفس على اذعانها لذلك ، وأن بين دَفَات كتب التاريخ والآداب العربية لأمثلة راقية لما كان يصدر عن الخلفاء والملوك وقادة الأمة من حلم لا تُحَلَّ حبوته، وأناة لا تخشى بادرتها، فانطلقت الألسنة من العقل ونظقت بما شاءت من المقال وانتصرت الحرية الفكرية وانتشرت الشجاعة الأدبية ، فلقد كان لهؤلاء السادة نضر الله وجوههم مقامات حسان وأنديّة ينتابها القول والفعل ومجالس يشفى بأحلامها الجهل يسمعون بها العظات ممن لا يؤبّه له وتُصغى أسماعهم إلى مرّ الانتقاد وشديد الجدال ممن قد يكون ضعيف المنة ليس له من الأمر شيء . ولقد كان من هؤلاء الملوك من لو شاء لبرى الرقاب وأطار

الهامات عن الأعناق بكلمة تلفظها شفتاه فيجربى بها قلم القضاء
ولكنهم كانوا أرحب صدرًا وأرقى فكرًا أن يدفنوا الآراء
في الصدور وأن يثدوا حرّية المناقشة وهم مطالبون باستحيائها
ومما يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله
عنه في رياضته نفسه وكبحه جماحها أنه نادى : الصلاة جامعة.
ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس لقد
رأيتنى أرى غنماً لخالات لى فكنن يقبضن لى القبضة من التمر
فأظلل اليوم وأى يوم . فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله
يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك . فقال :
ويحك يا بن عوف ، انى خلوت فحدثنى نفسى فقالت : أنت
أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها قدرها
أما أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فقد ضربت
بحامه الأمثال ولهجت بحسن سياسته الألسنة ولقد أحاطت
به مدّة خلافته أحوالٌ وحوادث لولا حسن دهائه وسياسته
وطول أناته وحامه لما أتيح له أن يبقى زعيم أمة يعلم أن فيها
من لا تقر عينه بخلافته ولقد حذا حذوه فى ذلك كثير ممن
خلفه من بنى أمية وبنى العباس أخذوا بيد الحقّ وشدوا أزره

وقاموا بنصرة المجادلة والبقاء على حرية المناقشة غير مفتونين
برأيهم ولا راكبين لهواهم رءوسهم، فرأى الناس في أيامهم
مجال القول ذاسعة فقالوا، وميدان حرية الآراء فسيحاً لجالوا،
فما كتموا عظة ولا أغضوا العين على قذى فأفادوا واستفادوا
خرج الزهري من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما
رأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهنّ رجل عند
هشام دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات
فيهنّ صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال ماهنّ : قال لا تعد
عدة لا تثق من نفسك بانجازها ، ولا يغرنّك المرتقى وان كان
سهلاً إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أنّ للأعمال جزاءً فاتق
العواقب ، وأنّ للأمور بغتات فكن على حذر. قال عيسى بن
دأب فحدثت بهذا الحديث الخليفة المهديّ وفي يده لقمة قد
رفعها إلى فيه فأمسكها وقال ويحك ! أعد عليّ ، فقلت : يا أمير
المؤمنين أسغ لقمتك فقال : حديثك أشهى إلىّ

حقّ لنا أن نقتدى بهؤلاء وأمثالهم ممّن أيّدوا حرية
المناقشة وبسطوا اللسان في صراحة القول والمباحثة أولئك
الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولوا الألباب

ولعمر الحق إن ذلك منهم لدليل على عقل راجح وعلم
غزير فإن المرء لا يفسح صدره لسماع رأى غيره إلا إذا هذب
العلم نفسه ولطف من طباعه

وما أحكم الفيلسوف الفرنسي مونتيني (Montaigne)

في قوله « ان مثل الناس في ازدياد تواضعهم واين جانبهم كلما
ازداد علمهم مثل سنابل القمح تظهر في أول أمرها وهي خلو
من الحب شائخة متعالية حتى إذا امتلأ جوفها وتم نُضجها
احدودبت سيقانها وانحنت رعوسها »

وكان تومس يقوّم التلاميذ بالتقريب والملاينة، يحترم
رأيهم وكلامهم، ولم يشك في قول صغير ولا كبير منهم كي
لا يثلم كرامته أو يكسر شيرته . ولم يعوز أحداً إلى حجة على
قول أو شاهد على عمل فعنده قولهم صدق وعملهم حق ورأيهم
محترم، وكفاء هذه الثقة كان لا يطلب منهم إلا الصراحة في
القول واحترام الحق . وتقديس الحقيقة . وقد شاع في المدرسة
كلها وطار في أنحاء المدينة ان اكبر جرم يقترفه التلميذ في
رجبي (Rugby) هو الكذب على ارنولد وجزاء من يفعل ذلك

أن يفصل أبدأً عن المدرسة^(١) وقد نقش تومس في أذهان الأجيال التي رباها شناعة الكذب وقبحه نقشاً لا يمحوه كر الغداة ولا مر العشى . وقد سرى مبدؤه هذا وهو (ابتياع الصدق بالثقة) على سهولته سريان الكهرباء في السلك . فعم الأسر والأندية . وأسلم له الانجليز في كل مكان وآمنوا بأنه أنجع دواء لاستئصال الكذب من النفوس . فأقبلوا على أولادهم من نعومة أظفارهم يغرسون في قلوبهم حب الحق واحترام الحقيقة حتى امتزجت الصراحة بدمائهم وسرى الصدق في عروقهم . وان أعظم سوءة يُراع لها الانجليز ويقشع منها بدنه لهى وصفك اياه بالكذاب « Liar » ولا غرابة في عياف القوم مَعْرِة الكذب وغسلهم أنفسهم من دنسه فهو يودى بحياة الأم كما يودى بحياة الأفراد وهذه آثار سلفنا الصالح تفيض بالبراءة من ذلك الخلق

(١) ان فكرة تومس ارنولد في ان المدرسة ينبغي ان تكون أشبه بحكومة غير مركزية (أو لامركزية كما يقولون) Gouvernement décentralisé تنوزع السلطة فيها على أكثر من فرد واحد غير انه من الضروري ان يشعر التلاميذ بوجود الوازع الأكبر الذى يروونه من حين الى آخر يشرف عليهم ويتفقد حالهم دون أن يكثر من التدخل في أمورهم تذكرني بقول العامة (هوب بعضا العز ولا تضرب بها) وقول النبي صلى الله عليه وسلم علق سوطك حيث يراه اهلك

(الكذب) . والتَّمدح بالصدق والصرامة والمباهاة بهما
والتعلق بأسبابهما ، فهذا دُرَيْد بن الصَّمَّة على جاهليته في مرثيته
المشهورة لأخيه عبد الله يُعزى نفسه عنه بقوله
وهوَنَّ وجدى أننى لم أقل له

كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي
وتلك أحاديث الخلفاء وأخبار الوفود ومقامات الأعراب
بين أيدي الملوك تنطق بحكمة ألسنتهم والصدق في قولهم
وفعلهم والصرامة البالغة في حديثهم

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن
عباس رضى الله عنهما من ترى أن نوليه حمص . فقال رجلاً
صحيحاً منك صحيحاً لك . قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا
تنتفعُ بي مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بي . هذه صراحة
رجل واليكم صراحة امرأة

حج معاوية بعد عام الجماعة فسأل عن امرأة من بنى كنانة
كانت تنزل بالحجون . يقال لها الدارِميَّة الحجونية فأخبر
بسلامتها فبعث إليها فلما جاءت قال أتدريين لم بعثت إليك ؟
قالت لا يعلم الغيب إلا الله . قال بعثت إليك لَأَسْأَلَكَ علامَ

أَحْبَبْتُ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتُني وَوَالَيْتُهُ وَعَادَيْتُنِي . قَالَتْ أَوْ تُعْفِينِي قَالَ لَا أَعْفِيكَ . قَالَتْ أَمَّا إِذَا أَيْتَ فَانِي أَحْبَبْتُ عَلِيًّا عَلَى عَدْلِهِ فِي الرِّعَايَةِ وَقَسَمَهُ بِالسُّوِيَّةِ وَأَبْغَضْتُكَ عَلَى قِتَالٍ مِنْهُ هُوَ أَوْلَى مِنْكَ بِالْأَمْرِ ، وَطَلَبْتُكَ مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقٍّ ، وَوَالَيْتُ عَلِيًّا عَلَى مَا عَقَدَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْوَلَاءِ وَحُبِّهِ الْمَسَاكِينَ وَاعْظَامِهِ لِأَهْلِ الدِّينِ . وَعَادَيْتُكَ عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاوِ حَكَمَكَ بِالْهَوَى . قَالَ هَلْ رَأَيْتَ عَلِيًّا . قَالَتْ إِي وَاللَّهِ قَالَ فَكَيْفَ رَأَيْتَهُ قَالَتْ رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ لَمْ يَفْتِنَهُ الْمَلِكُ الَّذِي فَتَنَكَ . وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ قَالَ فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ . قَالَتْ أَوْ تَفْعَلْ إِذَا سَأَلْتُكَ . قَالَ نَعَمْ . قَالَتْ تَعْطِينِي مِائَةَ نَاقَةٍ حُمْرَاءَ فِيهَا خَلْمٌ وَرَاعِيهَا . قَالَ تَصْنَعِينَ بِهَا مَاذَا . قَالَتْ أَغْذُو بِأَلْبَانِهَا الصِّغَارَ ، وَاسْتَحْيِي بِهَا الْكِبَارَ وَاکْتَسِبَ بِهَا الْمَكَارِمَ وَأَصْلَحَ بِهَا بَيْنَ الْعَشَائِرِ ، قَالَ فَإِنْ أُعْطِيتُكَ ذَلِكَ فَهَلْ أَحِلَّ عِنْدَكَ مَحَلٌّ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةُ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْكَ عَلَيْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤْمِلُ لِلْحِلْمِ
خَذِيهَا هَنِيئًا وَادْكُرِي فَعَلَ مَا جَدَّ

جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعَدَاوَةِ بِالسَّلَامِ

ثم قال أما والله لو كان على حيٍّ ما أعطاك منها شيئاً
قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

ذاك حديث امرأة تساق إليها الدنيا عفواً ويكال لها
المال كيلاً لتنزل عن رأيها أو تغير اعتقادها فلم تفعل

والشواهد أكثر من أن تذكر على ما كان لهذا السلف
الصالح من علو النفس وكرم الأخلاق والتمسك بالمبادئ

والدفاع عن الحق والنفرة الشديدة من التملق للقوة وما منا
إلا من يعرف ذلك ولكن ليس في معرفة الفضائل كفاية

بل الكفاية أن يعمل بها إلى النهاية

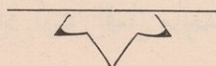
شكوتُ وما الشكوى لمثل عادة

ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

تلك هي كلمتنا عن التربية في إنجلترا والدعائم الكبرى

التي يقوم عليها صرحها وقد رأينا أن نشفعها بكلمة عن التربية

في أمريكا لما بينهما من تشابه في الطريقة واتحاد في الوجهة



الحاضرة الأولى

التربية في أمريكا

المحاضرة الاولى

نمبر

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف - سيداتى وسادتى

أبدأ بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتبليتكم دعوة النقابة
وتفضلكم بالحضور لاستماع محاضراتها فى ذلك دليل ظاهر
على عطفكم ومعاونتكم لها على المضى فيما اختطته لنفسها من
القيام على حركة التربية والتعليم فى البلاد لعلمكم أن ليس للامة
ان ترقى حتى تسلك هذا السبيل وان مصر الفتية الناهضة لا بد
لها ان تسير الى الامام وأن تحتذى فى سيرها مثال الأمم
الراقية التى لم تصل إلى ما وصلت اليه من عظمة ومنعة إلا بعد
أن بذلت جهوداً وتجشمت صعاباً وذوقت آلاماً تنوء بها الجبال
أما الأمم التى لم تمرن طويلاً على عراق الدهر ولم تألف
مقاومة الصعاب وتذليلها فسريرة العطب والفناء لأن عدم

استكمال تربيتها في ميدان الجهاد والمقاومة يجعلها عاجزة عن دفع عوادي الأيام وطواريّ الحداث

وما حياة الافراد والامم إلا جهاد دائم . لذلك كان حقاً على المدرسة أن تهَيّ النابتة لهذه الحياه وأن تُعَدِّمَ بالاساليب الحكيمة لكي يضعوا قدمهم ثابتة في المعترك ولكي يصبروا ويتجلدوا ويقاوموا حتى يغلبوا ويفوزوا

فكل تربية لا ترمي إلى هذه الغاية السامية هي والعدم سواء لانها لا تطابق طبيعة الوجود في شيء وكذلك كل تعليم لا يمد النشء بوسائل الكفاح في ميدان الحياة العملية الحقّة إنما هو تعليم عقيم لا خير فيه

ان نقابة المعلمين بمشاربتها على القاء المحاضرات وعقد المؤتمرات في شئون التربية إنما تؤدي واجباً عليها نحو العلم الذي هي أمينة عليه ورافعة رايته باليمين إذ تفتح للاصلاح العام باباً وتمهد للرقى طريقاً وهي باذن الله ماضية في هذا السبيل بفضل اتحاد أبنائها وبفضل تضامنهم ونشاطهم وغيرتهم على المصلحة العملية تخدمها في غرضها النبيل صحيفتها التي تنم عن حسن سعيهم وتنشر مباحثهم على الناس

وبعد فقد كنت يوماً أجيل النظر في الكتب الجديدة
باحدى المكتبات العامة فلفتنى عنوان ضخيم لكتاب « روح
التربية » وما كان هذا العنوان ليستهوبنى وحده الى اقتنائه
لولا انى أبصرت اسم مؤلفه الكاتب الجهد الدكتور جستاف
لبون الذى نوه كما تعلمون بحضارة العرب وشاد بذكرهم فى
كتابه الذائع الصيت « تاريخ حضارة العرب » والذى ترجم
له المرحوم فتحى باشا زغلول كتاب روح الاجتماع
أما السفر الذى نحن بصددده اليوم فتمتاز الطبعة الاخيرة
منه بفصل ممتع فى طرق التربية والتعليم فى أمريكا نقله عن
كتاب مسيو بويز ناظر مدرسة شارلروا من أعمال بلجيكا
الذى ساح فى أمريكا أخيراً وشرح طرق التربية والتعليم
فيها شرحاً كان له أعظم وقع فى نفوس الامم الاوربية جميعاً .
والذى يتصفح هذا الكتاب يتبين منه لبون الشاسع
بين حضارة أوربا وحضارة أمريكا وقبل أن يشرح الدكتور
جستاف لبون تلك الطرق انحى باللائمة فى الباب الاول من
كتابه على تعليم الجامعات فى فرنسا لانه مبني كله على استظهار

الكتب دون أن يكون للتأمل والتفكير والبحث والتنقيب
أثر فيه

أما اساتذة الامريكان فقد نجحوا بأساليبهم الحكيمة في
بث روح الملاحظة في النشء من بدء حياتهم وفي تنمية قوة
الحكم ودقة التصور ووصل أخلاقهم صقلا متيناً دون أن يكون
للكتب في كل ذلك شأن يذكر . ثم يقول « نعم ان في
جامعات فرنسا فئة من نوابغ الطلاب حرروا عقولهم من
قيود التعليم العقيم في تلك الجامعات وكوّنوا أنفسهم بأنفسهم
وبفضل جهودهم وحدهم بقيت فرنسا الى اليوم متبوءة مكانة
علمية بين الأمم ولكن السواد الاعظم من الطلاب لا يزالون
يرسفون في السلاسل والاغلال التي قيدتهم بها الجامعة
وسيطلون حياتهم متمسكين بتعاليم أساتذتهم القديمة عاجزين
كل العجز عن الخروج عليها أو الانحراف عنها مع أنهم هم
الذين تقوم عليهم حضارة الأمة وكان أول واجب على
الجامعات أن توجه كل عنايتها الى توسيع معلوماتهم وترقية
مداركهم لانهم عصب الامة وملاك حضارتها فكيف ترق
فرنسا اذا ظلت تلك الطبقة الوسطى منها في أسر الجامعة

لا تجد من يفك عنها الاغلال وينير لها السبيل

ولقد بلغ من تفشى تلك الطرق العقيمة في التربية والتعليم في فرنسا أن مدرسة من أرق مدارسها وهى مدرسة الهندسة (سنترال) التى كان ينبغى أن تكون أبعد المدارس عن الحفظ والتسميع يقنع طلابها من التعليم باستظهار العلوم كلها حتى الرياضيات منها ولكنها لا تلبث أن تزول من عقولهم اذا فرغوا من الامتحان لانها لم تصل الى أذهانهم الا من طريق الحافظة

وهذا المسيو بلتان الذى تربى في هذه المدرسة وهو الآن يشغل وظيفة مفتش بمصلحة المعادن يقول لنا : « ان التعليم الذى لا وجهة له الا أداء الامتحان يفقد كل ميزة علمية ولا ينمى الا قوة الحافظة ولما كان طالب الهندسة في بلادنا لا عمل له الا أن يحفظ دروسه من الكتب دون أن يكلف عملاً شخصياً يستلزم البحث والتنقيب والابتكار فليس هناك اذن مقياس صحيح نعتمد عليه في تقدير قيمته العلمية »

ولهذا نرى المتفوقين في الامتحانات غالباً هم أمضى الطلبة حفظاً وأوعاهم ذكراً وان كانوا أضعفهم تصوراً وذكاء

ومنهم تختار الحكومة موظفيها لسبقهم في حلبة الامتحانات
وعلى ذلك فالحكومة في اختيارها الرجال لوظائفها لا تعتمد
على صفوة أبنائها من حيث مواهب الفطنة والذكاء
ولقد وقع في السنوات الأخيرة حادث ببلاد الهند
أثبت للانجليز خطأهم في التعويل على الامتحانات . ذلك ان
الجرائد الوطنية تدمرت من طريقة تعيين الموظفين للخدمة
الادارية العليا (civil Service) واقترحت أن يكون انتخابهم
بالامتحان فقبل الانجليز هذا الرأي فكانت النتيجة ان فاز الهيمو
من أهالى البنغال على الأوربيين في الامتحانات نظراً لما
اشتهروا به من قوة الحافظة وسرعة الاستظهار غير أنهم مالبثوا
حين تولوا الحكم ان تجلى فيهم نقص كبير في الاخلاق وسوء
تصرف في الادارة العامة كادا يقودان الهند إلى الخراب لولا
أن الانجليز بادروا بالعدول عن هذه الطريقة إلى أسلوب آخر
يحرم الهيمو الاستفادة من هذه الميزة الطبيعية بعد أن ثبت
لهم ان الامتحانات عاجزة عن كشف الخبوء من أخلاق
المتحنيين وذكائهم وان استظهار الكتب وحده لا يؤدي إلى
سداد الرأي وبعد النظر في الأمور ولا يطبع في النفوس

عاطفة العدل والانصاف

والحقيقة الناصعة ان الوظائف الادارية الكبرى لا تتطلب نبوغاً كبيراً في العلم ولكنها تتطلب أولاً وقبل كل شيء أخلاقاً متينة كالعدل والقدرة على ضبط النفس في جميع المواطن

يقول جستاف لبون انه حدث له في أثناء زيارته للهند ان تعرف بموظف انجليزي كبير كان كثيراً ما يخرج وحده ليلاً إلى الغابات الشاسعة لاصطياد النمر فسأله عن سبب ذلك فقال له إنه كثيراً ما يشعر بضعف في عزيمته وعجز عن مقاومة نفسه والتغلب عليها فلم يجد علاجاً يعودها الصبر والأناة ورباطة الجأش في أدق المواطن وأخرج المراكز خيراً من أن يقضى الساعات بل الليالي يرتقب مرور النمر ليقتله علماً تمام العلم انه إذا أخطأ المرمى ولم يصبه في مقتله مدة ثلاث الثواني التي يمر فيها فهو هالك لا محالة

والتاريخ شاهد عدل على ان الأمم العظيمة لم تقم إلا بالاخلاق القوية وصفات الرجولة الحقبة كالتنبيه والتفكير والرأى والابتكار والنظام والتضامن والثبات والارادة تلك هي

الصفات الخلقية التي يجب على المرين أن يبثوها في النشء
وينموها على الدوام ولن يصلوا إلى هذه الغاية إلا أن يكثروا
من وضع التلاميذ في المواطن والظروف التي تحتم عليهم أعمال
الفكر والروية قبل الإقدام على اتخاذ قرار حاسم في موضوع من
الموضوعات وإن يجبروهم بعد أن صحت عزمهم على التنفيذ
أن يعضوا فيه إلى النهاية

عزم الشاعر الانكليزي «وردسورث» Wordsworth
مرة على تسلق جبل للتزده والريضة وبينما هو يصعد اذ هبت
عاصفة شديدة فاستمر في الصعود على الرغم من قصف الريح
وهو يخاطب نفسه بقوله : « ان العدول عن مشروع قام في
سبيله خطر صغير لهُو خطر على الأخلاق كبير » فلمثابرة
والارادة هما من أقوم الأخلاق التي تمتاز بها أفراد الامم الراقية
Science
livresque نعود إلى الكلام على العلم المدون في الكتب
ذلك العلم الذي ينعاه الدكتور جوستاف لبون على الجامعة .
يتساءل ما العمل لتلافي ذلك الخطر الداهم ونحن من ثلاثين عاماً نرى
الناس تضج من عيوب هذا التعليم وآثاره السيئة في البلاد وهؤلاء
رجال الجامعة هم أسبق من يعترف بهذه الحقيقة المؤلمة ولكنهم

كلما أرادوا مداواة العلة لا يتوجهون الا إلى المناهج وتنقيحها
والحال ان الداء الويل كامن في طرق التعليم لا في مناهجه
يقول مسيو ليمان وهو من اكبر مديري الجامعة أمام
لجنة التحقيق البرلمانية « ان التعليم عندنا في جميع أنواعه قد
هوى إلى قرار سحيق ليس بعده قرار ولا أدل على ذلك من
الخدمات الجليلة التي قام بها خريجو جامعات ألمانيا للصناعة
وعجز خريجي جامعاتنا عن مجاراتهم فيها

فألمانيا تخرج كل عام عدداً عظيماً من العمال المتتورين
الماهرين الذين تحتاج اليهم أوروبا وأمريكا في مصانعها ومعاملها
وبينما العلوم والصناعات تنمو على اطراد في ألمانيا اذا بها
عندنا في تدهور يزداد يوماً بعد يوم ومرجع هذا التقهقر في
اعتقادي هو أن طرق التربية والتعليم في فرنسا تقلها اليسوعيون
عن بلاد الصين ونبتت في مدرسة «لويز لوجران» القديمة التي
أسسها هؤلاء القساوسة العائدون إلى فرنسا من بلاد الشرق
الاقصى ومنها انتشرت في البلاد كلها ولا تزال هذه الطرق
متأصلة إلى اليوم في نفوس المعلمين مالكة عليهم مشاعرهم
جميعاً »

فالعلة اذن انما هي في وسائل التربية وطرق التعليم لا في المناهج نفسها بدليل أن المناهج واحدة أو تكاد تكون واحدة في المانيا وفرنسا ولكن شتان ما بين النتيجةين فالعبرة بالمدرس الكفاء لا بالمناهج الجذاب الخلاب وعادةُ السيف ان يُزهى بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل
إن الالمان أمة فطنت من زمن بعيد إلى فكرة هي
العقدة الحيوية في التربية والتعليم ألا وهي حمل مدرسي
الكليات على أن يهتموا كل الاهتمام بالطلاب وعلى أن يبذلوا
ما في وسعهم لتشويقهم إلى العلم . والسبب في ذلك ان الطلبة
هم الذين يقومون بدفع رواتب الاساتذة ولما كان لكل علم
من العلوم عدد كبير من المدرسين الاحرار فان الطالب يتجه
طبعاً نحو الاستاذ الذي يجيد التدريس ويتقن طرقة لذلك نرى
المدرسين يتنافسون في العناية بتشقيف الطلبة وفي اجتذاب
اكبر عدد ممكن منهم إلى دروسهم ليتسع لهم سبيل الرزق
فتراهم يعمدون تارة إلى الابتكار في طرق التدريس وتارة في
نشر أبحاثهم العلمية القيمة علماً منهم بأن هذه هي الطريقة

الفذة التي توصلهم إلى نيل المناصب العالية والوظائف الدارة
أما مدرس الكلية في فرنسا فموظف حكومي يتقاضى راتباً
ثابتاً وليس له أقل مصلحة في أن يستهوى عقول طلبته وأن
يشوقهم إلى العلم ويحببه اليهم ولو أنه كان يتقاضى راتبه منهم
لاضطر إلى تغيير طرقه في التعليم ولا سقط في ميدان المسابقة
وحل محله من هو أصالح منه وبفضل هذه المنافسة الحرة في
التدريس أصبحت الجامعات في ألمانيا وقد توافر لديها هيئة
محترمة من كبار العلماء والمدرسين لا نظير لها في العالم المتمدين
لذلك يقول جستاف لبون

« اننا إذا أردنا أن نهض من الهوة التي وقعنا فيها فعلينا
أن نقتل الألمان وعلينا أن نبدأ بالسير في الطريق الذي سلكوه
ووصلوا فيه إلى النهاية

ولقد فكر الألمان طويلاً في الكلمة الحكيمة التي فاه بها (لينز)

Donnez-moi l'Education et je changerai la face
de l'Europe avant un siècle.

ومعناها « سامنى قيادة التربية وأنا كفيل بتغيير وجه

أوروبا قبل قرن واحد من الزمان »

ننتقل بعدها إلى التمهيد إلى الموضوع الاصل وهو التربية في أمريكا

التربية والتعليم في امريكا

يقول الدكتور جوستاف لبون ان للمقارنة دخلاً كبيراً في تكوين عقولنا وتحصيل معارفنا ويجدر بنا لكي ندرك كنهه أسباب انحطاط التعليم في الجامعات عندنا أن نقرنه بالتربية في أرقى بلاد العالم تربية وأشدّهم عناية بأمورها ألا وهي امريكا ان المجالات التي تتصدى لشؤون التربية في الممالك المتحدة كثيرة ولكنها لا تجدنا نفعاً كبيراً لانها مدبجة يراعى رجال الجامعات أنفسهم ولهم فيها اعتباراتهم الخاصة ووجهة نظرهم انحصار لذلك كانت لنشر السفر البديع الذي وضعه حديثاً «مسيو بويز» ناظر مدرسة شارلروا في طرق التربية الامريكية رنة وضجة بلغت عنان السماء في فرنسا وعجبوا ايما اعجاب بما علموه من نظريات الامريكيين في التربية وقالوا ان مثل تلك التربية خليقة أن تخلق إنساناً ارقى من إنساننا وهاك ما خطته يراعة عالم من اكبر علماء فرنسا «مسيو لوشاتليه» قرأ هذا الكتاب فعرف للامريكان في تربيتهم المزايا الآتية: —

قال : إن أول عاطفة تملك على الانسان نفسه عند قراءة كتاب مسيو بوير عاطفة اغتباط بحضارة أرقى حقاً من حضارتنا : اعتقاد شامل وإيمان ثابت بحسنات التربية وفضلها ، حرية تامة تتمتع بها المدارس على اختلاف أنواعها وتبيح لها أن ترقى رقياً متناسباً وأن تُجرى من التجارب العلمية ما تشاء . - بالغة النفقات ما بلغت - اجلال المدرسة إجلالاً يقصدها عن السياسة ويحصنها من المعارك السياسية على شدتها وحدتها عند الأمريكيين ، فلسفة عميقة في التربية تملأ الفرد حياة ونشاطاً - في كل ذلك دلالة على رقى عقل وتهذيب فكر قل أن يكونا لغير تلك البلاد

وها كم صحيفة بدیعة من ذلك الكتاب النفیس جمعت أمهات مسائل التربية والتعليم :

ينثر المدرس بدقة ومهارة الصعاب أمام التلاميذ مرتبةً مدرجة ليواجهوها فينظروا فيحكموا فيظفروا ويفوزوا ، العمل الجسماني يسبق العمل الفكري دائماً أو يقارنه حتى إن أبعد العلوم عن الحس عندنا واكثرها جرياً وراء التصور واخيال تقدم إليهم في أشكال محسنة تقع عليها أنظارهم وتلمسها

أيديهم فيتعاون على سرعة إدخالها في أذهانهم مهارة اليد ودقة
الفكر

فعلم الجغرافيا أعمال يدوية محضة ودروس اللغة والانشاء
تعلم في المعامل لشدة ارتباطها بالرسم والحفر والصب اذ من
الرسوم والصور والمجسمات تنتزع الافكار وأساليب التعبير
الحركة في أرق صورها والاشغال اليدوية التي تحترف بها
جميع المدارس على السواء وتدين بقيمتها التهذيبية هما أحسن
درس وخير تمرين للنفس على الصبر والثبات والارادة

التعليم كله في كلمة : يعمل الجسم مع العقل جنباً لجنب
دائماً : والتعليم الثانوى الذى هو حلقة الاتصال بين طور
الطفولة وطور الشباب يسير على هذا النمط بعينه — قرن
العلم بالعمل — Instruction par l'action مع التوسع فى ذلك
كلما ارتقت مدارك التلاميذ فتزداد المسائل المطلوب منهم حلها
صعوبة كلما يزداد الغرض المطلوب الوصول اليه بعداً والعقبات
عراقاً وكادّة

تحرير العقل والعاطفة من كل وصية ورقابة . انتقاص
سيطرة الاساتذة تدريجاً مقابل نصيب صالح من التبعة

والمسئولية تلقى على عاتق الشبان والشابات تدريجاً كذلك ،
ذلك هو الغرض الاسمى الذى ترمى اليه التربية

يحمل التلاميذ على العمل بحرية تامة كأنهم وحدهم فى
الدنيا بلا رقيب ويحجب اليهم السرور يأتى من طريق الجهد
والمعاناة والفرح ينشأ من عراك الصعوبات ومكابدة العقبات .
ويدربون على ضبط النفس والاقتدار على زجرها وقمعها
"Self control" كل أولئك هو مهمة المدرسة العظمى ووظيفتها
الكبرى فلا الحقائق ولا النظريات تلقى شفهيّاً على التلاميذ
لان الأمريكيين ينفرون النفور كله من النظريات المهيأة
المجهزة ومن التعريفات والتصورات الا اذا خلقها العمل
وانتجتها التجارب

لم يبق فى المدارس كلها من اثر لتلك الطرق التى ترى
الفائدة كلها فى تلقين العلوم عن طريق الشرح والكلام دون
ان يترجمها التلاميذ بالافعال والأعمال ويرى المدرسون ان
التعليم على العموم والعلمى منه على الخصوص لا يمكن ان يكون
تعلماً منتجاً مفيداً إذا لم يمرن التلاميذ على كشف الحقائق
وحل المسائل العلمية بانفسهم وتلك طريقة الاستكشاف من

جديد Rediscovery المتبعة في المعامل والمصانع دائماً ولم يبق
للدروس النظرية التي تعطى في الفصول بطريقة الالتقاء قبل
بدء الدروس العملية التطبيقية أو معها أو بعدها أهمية تذكر .
أما المذكرات التي يكتبها التلاميذ بانفسهم في أثناء الدراسة
العملية بالمعامل والمصانع التي يصفون فيها مشاهداتهم
وتجاربهم الخاصة فانها قطب الرحي وأساس التعليم والمقياس
الصحيح الذي يسبر به غور التدريس لانها هي وحدها التي
تدل دلالة صحيحة على كفاية التلاميذ ومبلغ استعدادهم واقتدارهم
على تلمس اسرار النظريات واستنباط قوانينها من ملاحظة
الادوات والاجهزة

ولا يعير الاساتذة أهمية ما لتلك المذكرات التي يلتقطها
التلاميذ من أقوالهم في أثناء الدراسة النظرية والتي لها الصيت
الدائع والقدح المعلى في جميع المدارس الاوربية

وفي مدارس التعليم العالي يستمر الفوز للجهد والغلبة
للابتكار والاختراع ، والدغامة الكبرى التي يشاد عليها
التدريس فيها هي ترك الطلبة يجرون التجارب العلمية بانفسهم
دون ان يتجاوز تدخل الاساتذة في شؤونهم حد النصح

والارشاد وليس لهم في ذلك من غرض سوى استجلاء
الاستعدادات الحقيقية لكل تلميذ وتبين ملكاته وقرائحه
وقدرته على العمل والاستنباط

غرس بذور الارادة في أفئدة الاطفال والشبان وانما حب
العمل والمثابرة عليه في قلوبهم من بدء حياتهم والاسراع في
نقلهم من طور التبعية إلى طور الاستقلال واعدادهم بالطرق
العامة المحكمة لأن يتولوا شؤونهم بانفسهم والا يعولوا في
امورهم إلا على جهودهم Self Support تلك على ما يظهر أعظم
الاماني وارفع الغايات التي تطمح اليها أنظار القائمين بشئون
التربية والتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية

تربية العمال

أما تربية العمال في المدارس الصناعية على اختلاف انواعها
فانها تركز كذلك على طريقة التعليم بالمحسّات والتجارب
ولكن مع التوسع فيها إلى أقصى حد وأبعد مدى حتى ان
العامل الأمريكي الحالي ليعتبر في نظر الاوربيين القدوة المثلى
والمثل الاعلى الذي يطمحون اليه في ترقية عمالهم على مدى الايام

لانه في الغالب رجل مستنير العقل مدرب الفكر واسع الحيلة
وبخاصة في الحرف والصناعات الراقية

أما عهد العامل في الزمن السالف الذي كان لا يتجاوز
عالمه حد القوة العضلية والتقاليد القديمة وطرق الاسلاف
المتوارثة فقد مضى وانقضى وأصبحت التربية في جميع المدارس
الصناعية مبنية على طريقة الاقتصاد في الأيدي العاملة وان
يستبدل بها شغل الآلات الميكانيكية الحديثة الدقيقة

Saving
Labour

التي لا تتطلب من قوى العامل الجسمانية قدر ما تتطلبه من
قوة فكره ودقة ملاحظته وحضور بديهته في اتخاذ القرارات
السريعة لتلافي الطوارئ العارضة ولقد أحدثت سرعة التغيير
والتحسين في الآلات الصناعية الحديثة وطرق إدارتها صفات
جديدة في العامل الأمريكي عقلية أكثر منها جسمانية وتعمل
جميع تلك المدارس على تنمية تلك الصفات في العمال وترسيخها
في أذهانهم لتصبح على مدى الايام سجية لهم وغريزة فيهم

وفي تلك المدارس تبني الدراسة النظرية على المشاهدات
والمحسّات كما في مدارس التعليم العام وتستند الدروس الشفهية
إلى التمرينات التجريبية والأعمال اليدوية التي من شأنها ان

تضيف إلى المعلومات الأساسية في مختلف الحرف والصناعات
قوة المراقبة وتنبيه الذهن ومهارة اليد وحذق الصنعة
وليس للاخصاء أثر مآ في تلك المدارس لانها تحاول ان
تربي العمال تربية صناعية عامة توسع بها مداركهم وتنمي فيهم
حاسة التنفيذ من جهة ومن جهة أخرى تجنبهم خمود الذهن
وضيق الصدر وملل النفس ، تلك التي تستولى عليهم من
جراء مزاولة حرفة واحدة وتكرار عمل واحد على وتيرة
واحدة كما هي الحال في صناعة الوحدات المتماثلة كالسيارات
المتنوعة التي أصبحت المعامل تخرج منها الملايين
وإذا قيست الأعمال بنتائجها كان لنا من عظيم مقدرة
العمال في امريكا على الانشاء والاختراع والانتاج بمجموعة آلات
بلغت من الدقة مبلغاً عظيماً اكبر دليل على ان تلك التربية
الفنية الامريكية هي انجع انواع التربية واشدها فعلا في النفوس
وليس فيما وراء المحيط الاطلنطي أثر مآ لتلك الخرافة
التي رسخت في نفوس أهل أوربا واستعصى استئصالها من
عقولهم وهي احتقار الأعمال اليدوية وازدراؤها فليس هناك
امريكي واحد يعتبرها وصمة مخجلة أو عملاً مخلاً بالشرف فلا

القضاة ولا الاساتذة يُعتبرون اسماً منزلة وأرقى عقلاً من
إخوانهم الاذكياء من عمال المطابع ورؤساء المعامل
اما الموظفون الكتائيون في مصالح الحكومة فقد عرفوا
من زمن بعيد مكانتهم من المجتمع ووطدوا أنفسهم على
كسب لا يتجاوز ٥٠ أو ٧٥ فرنكاً في الاسبوع في حين أن
البناء أو النجار أو الحداد أو السباك يبلغ كسبه ١٢٠ فرنكاً مع
تساوى مدة العمل

ولقد تأصل حب العمل في طباع أهل امريكا وشغفوا
بمزاولة الاعمال حتى أن كل امريكى عامل في جوهره وهم
يقدرّون الرجال باعمالهم وكفائتهم ويزنونهم بما يحدّثون وما
ينتجون ولا يؤمنون بتلك الفكرة التي يؤمن بها الأوربي
ويدين بها من ان الألقاب والشهادات العامية تنيل حاملها
شيئاً من النبل العقلى والشرف الفكرى

ملحوظة — والسبب العامى النفسى (البسيكولوجى)
الذى يدعو المربين الامريكيين إلى التعلق باهداب العمل ويحبب
الأعمال اليدوية إلى تلاميذهم لهذا الحد هو انهم يعتقدون ان
هناك ارتباطاً وثيقاً بين حركة أجزاء الجسم وبين الخليات الخفية

الحركة (Cellules Motrices) التي هي مراكز الارادة العملية. فاذا اقتصر على فهم النظريات وادراكها دون ان يعنى بتنمية القوة العضلية لكل عضو من اعضاء الجسم قويت خليات المخ المدركة وخدمت الخليات الحركة ونشأ عن ذلك وهن العزيمة وضعف الارادة وان وجد الفكر والتصور والذكاء ولا بد للتربية الصحيحة ان تصرف كل همتها إلى تنمية هذه القوى على السواء حتى تخرج رجالاً يقرنون العلم بالعمل ويعقبون القول بالتنفيذ وذلك ما تصبو اليه نفوس الامريكيين وتطمح أنظارهم اليه في تربية أبنائهم

تقسيم التعليم

ينقسم التعليم في امريكا إلى ادوار أربعة يستغرق كل دور منها اربع سنوات فيكون مجموع ما يقضيه الولد في المدرسة ست عشرة سنة وهي : —

- ١ — التعليم الاولي من ٦ إلى ١٠ سنوات Primary
- ٢ — التعليم الابتدائي من ١٠ إلى ١٤ سنة Grammar Grades
- ٣ — التعليم الثانوي من ١٤ إلى ١٨ سنة High Schools

وإذا كان التعليم الثانوى فنياً من ١٤ إلى ١٨ سنة أيضاً

يسمى Technical Schools

٤ — التعليم الفنى العالى من ١٨ سنة إلى ٢٢ سنة ويسمى

Institute of Technology

جميع أولاد الأمريكيين يمرون بلا استثناء بالدورين الأول والثانى ويزيد الأقبال على التعليم الثانوى يوماً فيوماً حتى بين طبقات العمال غير أن الكثيرين يغادرونه بعد مضي سنتين عند ما يبلغون السادسة عشر من أعمارهم إما للبحث عن وظائف فى المحال التجارية والصناعية تقوم بحاجاتهم المعاشية وإما للدخول فى المدارس الفنية التى تقوم بتأهيلهم لإدارة حركة المعامل

أما التعليم الفنى العالى فلا يغشاه الا صفوة الشباب وخلاصتهم على أن الكثيرين يشكون من طول مدته لأنه يؤخر موعد دخولهم فى معترك الحياة العملية

ولقد عنى الأمريكيون عناية خاصة بثلاثة الادوار الاولى من أدوار التعليم وقد كانت موضع درسههم وبحثهم مدة طويلة حتى أصبح التعليم يسير فيها على نمط واحد وطبق أساليب

واحدة في جميع أرجاء الممالك المتحدة الأمريكية
والدعامة الكبرى التي يشاد عليها صرح التعليم في أدواره
الأولى هي تعليم الاشغال اليدوية وغايتهم من تدريب التلاميذ
عليها أن يبتشروا فيهم روح الابتكار والتنفيذ - أما الابتكار فبواعثه
دروس الرسم والهندسة والملاحظة وأما التنفيذ فيكون
بإبرازهم ما ابتدعته أفكارهم إلى حين الوجود بصنع أيديهم
وفي مدارس نيويورك يتعلم الأطفال صوغ الأشكال
من عجينة مرنة لإدراك الأبعاد الثلاثة وصنع الأشكال الورقية
وهي ذات بعدين فقط ، وصنع الأسلاك والخيوط في أشكال
مختلفة ممثلة هندسة البعد الواحد

وجل مدارس أمريكا تحذو حذو مدارس نيويورك في
اختيار موضوعات الرسم والأشغال اليدوية في المدارس
الابتدائية إذ يدور حول فكرة أساسية هي لفت التلاميذ إلى
ما يقع تحت أبصارهم وفي أفق ملاحظاتهم كالمنازل وأشغالها
وواجباتها وبواعث السرور فيها ثم يلي ذلك حياة المجتمع وما
يتبعها من وسائل النقل ومن مشاغل الناس وملاهيهم ثم تليها
الحياة المدرسية فالإجازات السنوية فدراسة المناظر الطبيعية

وتلك مايسمونها بمراكز الرغبة أو الشوق Interest Centars
ومن المحتم على المدرس قبل أن يخوض في موضوع من
تلك الموضوعات أن يثير شوق التلاميذ اليه بمناقشة يجتذب
أنظارهم وتدفعهم إلى الرغبة في البحث عنه فيندفعون إلى
العمل فرحين مسرورين بما يوحيه الموضوع في نفوسهم من
إحساسات قديمة وذكريات سابقة وبذلك يقبلون على تنفيذه
إقبال الهائم به كمن يريد تحقيق فكرة شخصية قامت في نفسه
ويبرز إلى عالم الماموسات فكراً جالاً في خاطره فاندفاعه يكون
بباعث من ارادته وقوة صادقة من عزمته ولا غرابة فحين يوجد
الشوق تنشط الارادة ويصدق العزم ويصح التنفيذ

وعلم الرسم سرعان ما يتحول في المدارس الأولية إلى فن
جميل فيخرج الأطفال إلى الحدائق والمنتزهات ليرسموا مايقع
تحت أبصارهم من المناظر الطبيعية المختلفة وهذا النوع من
الرسم (الرسم من الطبيعة مباشرة) يحبه الامر يكون ويحضون
عليه لانه يعلم الاطفال من صغرهم كيف يترجمون مايجول في
أفكارهم بالأشكال الجميلة والرسوم الأنيقة . ويتعلم الطفل
كذلك في المدارس الأولية الرسم بالألوان والفرجون

(الفرشة) والماء والريشة وقلم الرصاص كما يتعلم رسم الوجوه البشرية ويحذقها بسرعة لأنهم يتخذون من وجوههم أنفسهم نماذج ينقلون عنها

أما الفكرة السائدة في المدارس الاوربية وهى تمرين اليد والعين فقط فى رسم الأشكال الهندسية ونقل النماذج الصناعية فلا يقبلها الامركيون فى مدارسهم

فلاحة البساتين

فى مدينة واشنطن خمسة واربعون الف طفل يشتغلون بفلاحة البساتين ويقام فيها كل سنة معرض عام تعرض فيه النباتات والخضروات والأزهار والثمار التى يعهد إلى التلاميذ فى غرسها ونموها بأنفسهم وتعرض مع تلك الحاصلات أعمالهم المدرسية النظرية وكلها لا تخرج عن معلومات مستمدة من تلك الحقائق

وفى هذه المدارس يحوم تعليم العلوم كلها من جغرافيا وحساب ودروس أشياء وأشغال يدوية حول تلك الحقائق الصغيرة ويتلقى التلاميذ فيها معلومات حية طريفة محسنة عن

طبيعة الأرض ورطوبتها وخصبها ونمو النبات فيها وظهور البراعم
 (الأكمام) والأوراق والأزهار والثمار وأثر الفصول فيها
 فلو قرأت مذكرة كل طفل لعرفت منها تاريخ البذر
 وخروج النبات ونمو الساق وملاحظاتهم على أدوار نمو النبات
 وظهور البراعم وانبثاق أزهارها وإيناع ثمارها وجنيها
 هذا مجمل مناهج التعليم الأولى في أمريكا فإذا انتقلوا منه
 إلى التعليم الابتدائي تدرجوا إلى ما هو أرقى وأوسع في تلك
 العلوم عينها وما يجد عليها ولا ينبو عنها وكذلك حالهم إذا ما
 انتقلوا إلى التعليم الثانوي فانهم يزدادون نمواً وبسطة واتساعاً
 في المعارف مع حرصهم على ربط هذه الأدوار الثلاثة بعضها
 ببعض حتى كأنها هيكل جسم واحد يتم تكوينه في الدور
 الأول ولا يزيده ما يلي من الأدوار إلا عظماً وقوة ونمواً



المحاضرة الثانية

حضرات اصحاب المعالي والسعادة : حضرات السيدات :

حضرات السادة

أبدأ محاضرتي بتقديم الشكر الجزيل لحضراتكم لتفضلكم
بالحضور لسماعها وكل ما أرجو ان يكون لمحاضرات تقابة
المعالمين النشيطة الغيورة صدي في نفوسكم ونصيب صالح من
اهتمامكم والتفاتكم فان مسائل التربية والتعليم ليست وقفاً على
فريق من الأمة دون فريق ولا طائفة دون طائفة بل هي
ملك للجميع ويجب ان يهتم لها الجميع

ولم أر أمة أدركت هذه الحقيقة الناصعة وقدرتها قدرها
إلا الأمة الأمريكية فترى أبواب المدارس على اختلاف
انواعها مفتحة لكل زائر صغيراً كان أو كبيراً غنياً أو فقيراً
محمياً أو طبيباً مزارعاً أو تاجراً أو عاملاً الخ

كل هؤلاء يرون واجباً عليهم أن يزوروا المدارس من
حين لاخر ليتفقدوا سير الدروس بها وليبدوا ما قد يعنّ لهم
من الملاحظات

وإذا أراد ذوو اليسار منهم أن يظهروا سرورهم من تلك
المدارس فعندهم الف طريقة وطريقة لظهارها والامر يكان في
هذا أجود من الريح

بمثل هذا التشجيع يشعر المدرسون والقائمون بأمر
التربية والتعليم أن وراءهم أمة ترقب حركاتهم وتهتم لأموالهم
وتفرح لوقيتهم فيتضاعف اهتمامهم بأمر تلاميذهم ويزدادون
همة ونشاطاً ولذلك ارتقت الأمة الامريكية رقياً يحسدها عليه
اكبر الامم الاوربية حضارة ورقياً

ان وزير المعارف وحده مهما أوتي من العلم والحكمة بل
وعشرين معه من نوابغ رجال التعليم لا يستطيعون أن يقوموا
بأعباء هذه المهمة على وجهها الأتم إلا اذا شعروا بأن من
وراءهم أمة يعتمدون عليها تزودهم بالنصح والارشاد وتشجعهم
بالمال — بهذا وحده ترقى التربية والتعليم وبالتالي ترقى الأمم
كثيراً ما نقرأ ونسمع أن وفود الاعيان تقصد إلى وزارة
الداخلية لأموال ربما لا تكون من أهم شؤون الدولة ولم نسمع
ولم نقرأ أنهم عرجوا مرة على وزارة المعارف أو المدارس لتفقد
أحوال التعليم والسؤال عن المناهج الجديدة وما تنوى الوزارة

ادخاله عليها من التحسين .

ونحن لا نستطيع أن نجارى الامم الراقية ولا أن نتبوا
مكاناً محترماً بينها — الا اذا احتذينا مثالها ونسجنا على منوالها
ولا بد للوصول إلى ما وصلوا إليه من أن نغير كثيراً من
أخلاقنا وأطوارنا . وكل من سار على الدرب وصل

التعليم الثانوى

يحسن بنا ونحن على أهبة انشاء جامعة مصرية أن نخص
التعليم الثانوى بشىء من الشرح والايضاح لانه الحد الوسط
بين التعليم الابتدائى والعالى ويجب أن يكون من السعة والمتانة
بحيث يعدّ الطلاب اعداداً وافياً اما للدخول فى الجامعات
واما لسد وظائف الحياة الحقيقية أى الحياة العملية كالصناعة
والزراعة والتجارة

وقد عرضت عقدة تلك الدراسة المتوسطة على بساط
البحث فى أمريكا كما كانت موضع الجدل والمناقشة فى اوربا
بل وفى جميع البلدان المتحضرة التى يهتمها أن تحكم الرابطة بين
الدراستين الابتدائية والعالية وقد حلّتها كل أمة على الوجه

الذى يلتزم مع أغراضها من التربية ومرايتها من التعليم
وقد ارتأى الأمريكيون في هذا الصدد كما رأى كثير
من الأمم الأوروبية أن يكون هذا التعليم المتوسط عاماً وخصوصاً
في آن واحد : عاماً بأن تفرض على التلاميذ كلهم دراسة عدد
معلوم من الموضوعات الهامة كلغة البلاد لمدة ثلاث سنوات
أو أربع والرياضيات لمدة سنتين وقد يضم اليهما في بعض
الاحيان التاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي ، وخصوصاً بأن
يضاف إلى تلك الأصول المشتركة علوم أخرى يختار الطالب
من بينها ما يتمشى مع الغرض الذي يريد الوصول اليه كاللغات
القديمة (يونانية ولاينية) أو اللغات الحديثة أو العلوم
الطبيعية أو إمساك الدفاتر أو قياس المساحات وما إلى ذلك
وقد تستغرق دراسة العلوم الخاصة ٧٠ ٪ من زمن
الدراسة في بعض المدارس و ٤٠ ٪ في البعض الآخر
هذا فيما يتعلق بنظام الدروس وتوزيعها أما ما يتعلق
بالغاية التي يسعى اليها الأمريكيون من هذا التعليم المتوسط
فهو التوصل إلى نظام يكفل تكوين رجال ذوي جد ونشاط
أضف إلى ذلك عنايتهم الكبرى ببيت روح الاستقلال في

نفوس تلاميذهم من بدء حياتهم فهم يتخلون تدريجاً عن
سلطتهم ليتسنى لهؤلاء التلاميذ أن يتدرجوا في مباشرة أعمالهم
ومراقبتها بأنفسهم ويعملوا على الابتكار والاختراع وألا
يعتمدوا في شيء إلا على ارشاد عقولهم وهداية أفكارهم
والمثل الأعلى الذي يتطلع إليه كل أمريكي في ذلك هو
قول الصانع الأمريكي الكبير (پاترسن) عن حادث وقع له
أيام صباه ذلك أنه قال لآبيه مرة إنه في حاجة إلى مزلق (قبقاب
للسير على الجليد) فقال له يا بني إمامك الغاب فخذ لك فأساً
واحتطب لك حملاً وبعه في المدينة واشتر بضمنه إن شئت مزلقاً
وقول رئيس جمهوريتهم (روزفلت) في أحد مؤلفاته:
لا يتسنى لمجتمع من المجتمعات أن يرقى رقياً صحيحاً إلا إذا عاش
أفراده من رجال ونساء عيشة نقية — ساذجة — صحية وربوا
أبناءهم على اقتحام العقبات وتذليل الصعاب لا على تجنبها
والفرار منها وعودهم أن ينتزعوا الفوز والنصر في الحياة من
طريق الجهد والمعاناة وأن الرجل الجدير بهذا النعت هو الجلد
الصبور النشط الذي يكد ويكدح ليل نهار لحفظ كيانه
واسعاد كل من يعيش تحت كنفه.

لذلك ولأسباب نفسية « بسلوكولوجية » ذكرناها قبلاً
عني الأمريكيون عناية خاصة بتدريس مادة الاشغال اليدوية
التي أصبحت ولها المنزلة الأولى بين فروع التعليم في تحريك
الجسم وإنماء القوة العضلية وتقوية الارادة العملية وهذا
الموضوع الذي بلغ عندهم مبلغاً عظيماً من الأهمية اجباري في
مقرر الدراسة الثانوية الفنية واختياري في المدارس الثانوية
العادية الا أن التلاميذ مع ذلك يقبلون على مزاولته اقبالا عظيماً
لما انطبعت عليه نفوسهم من حبه في المدارس الاولى الابتدائية
ولا يختلف التعليم في هذين النوعين من المدارس
الثانوية الا في هذه النقطة أما باقي العلوم من تاريخ وجغرافيا
وطبيعة وكيمياء وففروضه فيهما على السواء كما أنه لا فرق بين
تعليم البنين والبنات في تلك المدارس الا في نوع تلك الاشغال
اليدوية فينما الذكور يشتغلون في الخشب والحديد وصهر
المعادن يشتغل الاناث بالعلوم والفنون المنزلية كالطهي والغسل
أو التفصيل والتطريز وفيما عدا ذلك يدرس الجنسان جنباً
لجنب التاريخ والجغرافيا والرياضة على السواء وطبقاً لبرنامج
واحد

ترون من هذا أولاً أن التفرّيع في العلوم يبدأ في المدارس
الثانوية الأمريكية من السنة الأولى أما في مدارسنا بمصر فمن
السنة الثالثة وسيكون من السنة الرابعة في المنهاج الجديد
وفي اعتقادي أن الأمريكيان مصيبون في رأيهم لأن التفكير
في التخصص مع المحافظة على الثقافة العامة يترك للذهن مجالاً
أوسع للتفكير في الغاية المطلوب الوصول إليها ولا شك أن
فعل الزمن المديد أغرس للرغبة في العلم وثبات العزم على
بلوغ القصد

علل المربون متانة الحب الذي يشعر به الإنسان نحو
رفيقه في المدرسة بأنه لم يكن ابن حادثة بل فعل الزمان المديد
فنبت في النفس في رفق وهوادة رويداً رويداً حتى تغلغل في
طياتها واستوى كما تستوى الأزهار على سوقها أما حب
المفاجأة والمباغته فلا يقيم في القلب إلا ريثما يخرج منه، على أن
التفرّيع في العلوم للاخصاء يبدأ في كثير من المدارس الحرة
الأوربية منذ التعليم الابتدائي وما ذلك إلا إيماناً بأن الشغف
الحقيقي بالعلوم لا يكون إلا من فعل الزمن المتطاوّل فإذا نوى
الطفل وهو في طفولته أنه سيصير طبيباً مثلاً ثم دأب على أن

يرى من وقت لآخر ما يذكره بهذا المصير غرس حبه في قلبه
تدريجاً وصنع له الأمل والخيال ذلك المصير بالصنع الجميل
فيزداد به شغفاً وحباً

سمعت سنة ١٩٢٢ في مؤتمر التربية الخلقى الدولى مربية
سويسرية تخطب أمام هيئة المؤتمر فى كيفية تربية الحب
البنوى عند النساء فقالت : يجب أن نُشعر البنت بحياة
الزوجية المستقبلية من يوم ان تشعر بوجودها فتكون لعبتها
تمثال عروس تداعبه وتلهو به ثم تتدرج إلى أدوات الشراب
والطعام التى تناسب لعبها ثم إلى متاع شبيه بمتاع المنازل ثم
إذا شدت وعقلت وشبت وترعرعت وكل إليها الاشراف
على تربية طفل من أطفال الملاجىء تقوم بنشأته ورعايته مدة
سنتين كأنها أمه تحنو عليه ويسعدها أن يكون صحيحاً معافى
فلا ينتهى بها ذلك الدور الا وهى ربة منزل ماهرة ، قد شغفت
بحياتها الجديدة حباً وتأصل فى روعها ان سعادتها لا تكون الا
فى منزلها وأنه على تعلقها بأبنائها وغيرها على تقويمهم وتهذيبهم
تتوقف حياة الوطن وسعادة الامة . لذلك يقول المربى العربى :
« اطبع الطين ما كان رطباً وأغمز العود ما كان لدناً »

وهل الدونة والطراوة إلا في غض الشباب وريعان الصبا

وثانياً — ان التعليم الثانوى عندهم ليس علمياً خالصاً كما عندنا بل أنهم أنشأوا مدارس خاصة بالتعليم العلمى واعداد الطلاب للتعليم العالى من غير أن يضحوا بالتربية العملية الفنية High-schools كما أنشأوا مدارس ثانوية أخرى لها حظها من العلم أيضاً ولكن عنايتها بالحياة العملية أشد، والذين يخرجون منها يستطيعون أن ينصرفوا إلى فروع الحياة العملية الحقبة Technical Schools

ثالثاً — ان نصيب البنت من التعليم لا يكاد يختلف عن نصيب الولد فى شىء إلا فى نوع الأشغال اليدويه أما الثقافة العامة فواحدة فيهما والسبب فى عناية الامريكان بتربية البنت تربية علمية كاملة هو اعتقادهم ان المرأة تجود بكل ما منحت وتعطى كل ما وهبت فاذا ما هذبت وثقفت دفعها كرم طبعها وصفاء جوهرها إلى التفانى فى إيصال جميع معلوماتها إلى أبنائها وتلاميذها فى غير شح ولا بخل فهم يؤمنون بأن مستقبل بلادهم بين يدي المرأة وأن عليها وحدها تتوقف سعادة الاجيال المقبلة المتعاقبة لذلك هم لا يدخرون وسعاً فى تهذيبها وترقيتها

إلى أبعد حد مستطاع وان الذي يرى المطابخ ومصانع تفصيل
الملابس الملحقة بكل مدرسة ثانوية تهوله ضخامة بنائها واتساع
أرجائها وفيها تتعلم الزوجة المستقبلية بالطرق العملية التدريجية
كل ما من شأنه ان يضمن لها استقلالاً حقيقياً داخل
حدود بيتها

ولا يرى الامريكان رأى الاوربيين في فصل البنات عن
الولد في المدارس لأنهم يعتقدون ان تعليم البنات في مدارس
خاصة بهن كما هو الحال في مدارس اوربا تعليم سطحي صناعي
لا خيره

ولكى تتقوا على تدريس مادة الاعمال اليدوية في تلك
المدارس اذكر لكم نماذج من تعليم الطبيعة والكيمياء
والهندسة لان طريقة تدريسها واحدة ولا يفوتني قبل عرض
تلك النماذج ان اذكر حضراتكم بأن الامريكيين هم المخترعون
لمعامل الكيمياء والطبيعة التي نراها اليوم منتشرة في جميع
البلدان . ولا يعلم ان مدرسة ثانوية اوربية وصلت في التعليم
من طريق العمل learning by doing الى ما وصلت اليه
المدارس الثانوية الامريكية

يقول مسيو بويز : إنه زار ما يقرب من عشرين معملاً من تلك المعامل ورأى الطلبة وهم يعملون بها بكل ما أوتوا من جد ونشاط وقد رما لها من الاثر النافع والفعل الصحيح في خفة حركاتهم وإيقاظ عقولهم وقد كان موضوع التجربة التي أجراها التلاميذ أمامه في مدرسة "Crane Manual Training School" تحقيق قوانين البندول ورأى ان الشبان والشابات عند ما فرغوا من العمل وانتهت التجارب أقبلوا على مذكراتهم ودونوا فيها بكل بساطة وبكل اختصار ما يأتي : قوانين البندول — ذبذبات البندول الصغيرة متساوية في الزمن — لاعلاقة لمدة الذبذبات بالكتلة — المدة تناسب الجذر التربيعي لطول البندول . انتهى . فليس بين الظاهرة الناتجة وعقل التاميد وعينه محل لذلك الحشو الممل من الجمل والاصطلاحات والتعريفات التي يجب استظهارها بل إن الحقيقة المجردة العارية هي التي تتجلى أمام أعينهم ثم تدخل في ذاكرتهم كأنها ملكهم الخاص .

وتسير التجارب طبقاً لرؤوس مسائل مختصرة من متون الكتب Text books تبين الغاية من كل تجربة والاحتياجات التي يجب اتخاذها تحاشياً للوقوع في الخطأ

والى حضراتكم نموذجاً من نماذج التجارب الكيميائية

التي كان يجريها طلبة مدرسة "Mac Kinley Training High School of Chicago"

أثناء زيارة مسيو بونز لها (التغيرات الكيميائية للنحاس)

(١) خذ قطعة نحاس وتأملها . هل يشاهد عليها تغيرات

ظاهرة اذا سخنتها في أنبوبة اختبار وهل تذوب في الماء ؟

ما صفات النحاس الأخرى ؟

(٢) ضع قطعة صغيرة من النحاس في أنبوبة اختبار بها

حامض آزوتيك مركز . دوّن بدقة وعناية ما يطرأ من

الظواهر ومتى انتهى تأثير حامض الازوتيك ، صب السائل

في جفنة من الصيني وبخره بوضع الجفنة على شبكة معدنية

فوق مصباح بنزن . سخن بهدوء واحذر أن تسخن بشدة

إذا ابتداءً بالتجفيف

(٣) بعد التبريد أجر على الجسم الحادث نفس التجارب

التي أجريتها على النحاس على حسب ما هو مبين برقم ١

(٤) هل اذا بخرت ثلاث أو أربع نقط من حامض

الازوتيك تحصل على ما حصلت عليه عند ما بخرت النحاس

وحامض الازوتيك ؟

وازن بين رقم ٣ ورقم ١ ثم استنبط مع ملاحظة ما جاء
برقم ٤ نتائجك ودافع عنها بالحجج القاطعة استناداً الى ما
اكتسبته من الثبوت والخبرة في العمل

يقول مسيو بوير : إن من يعلم مدى كراهية تلاميذنا
لدراسة علم الكيمياء من الكتب والمختصرات والمذكرات
يأخذ الدهش حينما يرى السرور بادياً على وجوه التلاميذ
الأمريكيين وهم يتعاملون بالادوات والاجهزة ذلك العلم النفيس
الذي لم تعد تخفى أهميته العظمى على أحد سواء أفى قيمته
التعليمية أم فى تطبيقاته الصناعية

إن الأثر الذى يبقى فى أذهاننا بعد مغادرة المدرسة من
دراسة علم الكيمياء التى نسميها تجاوزاً بالكيمياء العملية
لا لسبب سوى أن المدرس يُجرى من حين لآخر بعض
التجارب بمراى من التلاميذ ، ذلك الأثر هو أن النظريات
والقوانين هى أصل العلم والاساس الذى يشاد عليه أما الحقائق
والتجارب فى المنزلة الثانية ولا تأتى بعد الا لتحاول - ولو
بالاكراه - تأييد تلك النظريات وإثباتها وأن علم الكيمياء
بمخفايره معلق على النظرية الذرية التى لو أغفلت لأصدا باب

الاجتهاد ولا استحال التحليل واستعصى الاختراع وإن المبتدئ من الطلاب ليخيل اليه أنه بلغ ذروة الرقي اذا عرف أن الماء هو ايد ٢ وإن لم يكن يدرك لذلك الرمز اصلاً ولا معنى

أما في امريكا فان النظريات والقوانين تستكشف استكشافاً بالعمل والتجربة كما قدمنا ولا شك في أن هذه هي الطريقة المثلى للتدرج في الابتكار والاختراع

فبينما ترزح مدارسنا تحت عبء تلك الطرق العتيقة التي تقف التلميذ موقف المستمع المتقبل لا الممثل الفاعل اذ بمدارس الامريكان تجاوبها بكل افتخار بما تنعم به من الطرق الحديثة التي ترمى دائماً وبكل الوسائل الممكنة الى استخراج ما كمن في التاميد من جهود وملكات وارادة ومنطق ومهارة وتوجهها جميعاً للعمل جنباً لجنب متخذة لها في ذلك كله شعارهم المشهور "push — Help Yourself" ومعناه :

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك
ليأخذوا الأطفال من حداثة أسنانهم . بالاعتماد على النفس والجرأة على الخوض في غمار الحياة وتجربة أمورها واقتحام عقباتها مهما كلفهم ذلك فهم يعلمون الطالب كيف

يكون وصولياً ولكن على أرقى وأشرف أساليب الوصولية

Arrivisme.

تأثير هذه التربية الاجتماعية في نفوس الاصرياطة

كان طبيعياً بعد ذلك أن نفهم من تربية تطرق ذلك الطريق وترى دائماً الى اعداد كل فرد لان يقوم بنفسه ويستقل بأموره في هذا المعترك أن الامر يكان قوم بلغوا من جمود العواطف وقساوة القلب مبلغاً عظيماً فلا يعينهم أمر الجائع ولا يشغلهم شأن البائس وهذا نتيجة ما يسميه الافرنج الفردية المتطرفة «L'individualisme à outrance» غير أن من ينعم النظر في أخلاقهم الاجتماعية يرى أنهم يفهمون من الصدقة والاحسان معنى غير المعنى الذي تفهمه الحضارة القديمة ذلك انهم بحثوا عن علة الشقاء فاجتهدوا في ملاقاتها وعرفوا ممكن الداء فعمدوا الى استئصاله . عرفوا أن علة الفقر الجهل فأقاموا دور الكتب بكل سبيل وفتحوا مدارس لكل طالب وأوجدوا عملاً لكل عامل ووسيلة لكل مستطيع فليسوا مثل الأمم القديمة تداوى ظاهر العلة وتبرىء اليوم ما ينتقض غداً

فتطعم الجائع وتسد حاجة المحتاج وهى بذلك انما تعطل جمهوراً كبيراً تحتاج البلاد إلى جهوده وتعوده الرحمة الضارة وتحرم الوطن الانتفاع بوجوده فلا هى أحسنت إلى هؤلاء ولا إلى الوطن بهذا الاسلوب من الشفقة والرافة

والآن أعرج بحضراتكم على فرنسا التى ترسف في قيود طرق التربية العتيقة العقيمة كما يعترف به كبار علمائها وكتابها والتى لا تزال إلى اليوم تنأى أبداً عن ذلك المرض الاجتماعى الخطير الذى نجحت أمريكا نجاحاً باهراً في استئصال شأفته من بلادها بفضل تربيتها الحقة وتعليمها الصحيح ذلك المرض هو وجود جيش عرمرم من ابنائها العاطلين وجلهم من الذين قضوا شبابهم بالمدارس والجامعات وحصلوا منها على الشهادات والدرجات والالقاب العلمية العالية

يقول جوستاف لوبون إن الدعامة الكبرى التى يشاد عليها صرح التعليم في مدارسنا الثانوية والعالية هى حفظ الكتب الضخمة واستظهار الشروح المطولة وشحن الادمغة بنظريات لا تستقر فيها الا ريثما تنقضى أيام الامتحان شأن كل علم يصل الى العقل من طريق السماع وليس للنظر فيه مجال

وإذا كان الشاعر العربي يقول في مجال السياسة : السيف
أصدق أنباء من الكتب - فانا أقول في مجال التربية والتعليم
العين أصدق أنباء من الأذن

والروح السارية في الجامعات بل وفي المعاهد العلمية كلها
هو الاعتقاد بأن قيمة الرجال تقاس بمقدار ما يطبقون ان
يحفظوا وما يستطيعون أن يستمعوا فلا فرق عندنا بين
خريجي الجامعات وحاملي البكالوريا الا أن الصنف الاول يخزن
في ذاكرته من المعلومات أكثر من الصنف الثاني وليس إذن
بغريب أن يضوّل الانتاج العلمى الفرنسى وتنحط مكانته
العالمية بين الأمم

نحن نعتز بان عندنا مهندسين وأطباء وأساتذة يفوقون
مناظرهم من الأمم الأخرى علماً ولكنهم للأسف إذا وضعوا
قدمهم في ميدان الحياة العملية الحرة أظهروا من الخبل والعجز
ما لا يشرف رجال الجامعة الذين خلقوهم خلقاً صناعياً والذين
وصفهم الناس بحق انهم علماء بلهاء Idiots Savants أما إذا
منحتهم الحكومة وظائف فيها فان ذلك النقص الفاحش
والعجز الظاهر يظل مخبوءاً مستوراً ولا يظهر جلياً إلا عند

مزاولة الاعمال الحرة ولا سيما الصناعات والحرف التي تتطلب
مهارة ودقة كحرفة المهندس مثلاً. واليك اقوال أحد الاساتذة
امام لجنة التحقيق :

ان المهندس الالماني عند خروجه من مدرسة فريبرج
(Fribourg) مثلاً يستطيع أن يباشر العمل من فوره وله قيمة
فنية يعترف بها رؤساء المعامل والمصانع الكبيرة. أما المهندس
الفرنسي الخارج من سنترال الذي يعلم من العلم النظري مالا
يعلمه المهندس الالماني فانه قل أن ينتفع به في هذا المضمار لانه
كما يقولون :

Apte à tout مستعد لكل شيء

bon à rien ولا ينفع بشيء

ولذلك يختار رؤساء المعامل والمصانع في فرنسا عمالهم
من خريجي مدارس الفنون والصنائع بها ويؤثرونهم على
المتخرجين في مدرسة سنترال

وما ينطبق على المهندس ينطبق على الجندي والطبيب
والمعلم وغيرهم

كتب مسيو (دوسوسير) أحد ضباط البحرية

الفرنسية مقالاً في كيفية تعليم تلاميذ المدرسة الحربية الرماية قال فيه: إن هؤلاء الشبان يقضون الأيام والشهور في حفظ نظرية الرماية من الكتب، والمدافع أمامهم، وليس لاحد أن يلمسها بيده ثم يمر الممتحنون فيمنحون أعلى الدرجات لمن يحسنون الحفظ ويجيدون التسميع ولو اننا أردنا خيراً بآبائنا وتوخينا معهم طرق التربية الحقة لتركناهم يضعون أيديهم في العجينة مباشرة ويفكون المدافع قطعة قطعة ثم يعيدون تركيبها المرة تلو المرة وإني لو اثق أن التاميد الذي يطلق مدفعاً بعد حله وتركيبه بيده يعرف من نظرية الرماية والتصويب أضعاف ما يعرفه منها من حفظها من الكتب واستظهرها من الشرح

لا نريد أن نسترسل في إيراد الأدلة والشواهد الصادرة عن أفاضل الكتاب والعلماء ولا سيما الذين ساحوا في الدنيا وجاسوا خلال الأمم وخبروا أحوال الشعوب ووقفوا على أسرار رقيها أو انحطاطها مثل « مسيو دوسوسير » المتقدم الذكر لأن الانسان يكاد ينجل من تكرار أمور كهذه أضحت واضحة وضوح البدهيات غير أن من يراها بعينه يدرك مدى

تأثير عقلية رجال الجامعة في جميع معاهد التعليم ومبلغ ما جروه
 علينا من الويلات بفضل طرقهم العقيمة في التربية والتعليم
 فلقد صيرتنا امة تتعلق باهداب النظريات بعيدة عن الحقائق
 عاجزة عن تكييف الظروف والانتشاء امام الضرورات قصيرة
 النظر في الحكم على الأشياء والبصر بعواقب الأمور ولا بد
 من أن نعترف صراحة أن تعليمنا الحالى لا يتمشى مع التطور
 الحديث ولا يتفق مع احتياجات هذا العصر بل إنه من أهم
 عوامل الانحطاط الاقتصادى الذى تعانىة فرنسا اليوم وإنه
 ليحزننا كل الحزن أن نوازن بين رقينا البطىء فى الشئون التجارية
 والصناعية وبين ذلك التفوق الظاهر والنجاح الباهر الذى
 أحرزته الامم المجاورة لنا فى هذا الميدان ولا سيما الالمان
 وكيف لا تكون الموازنة مخزنة والنتيجة سيئة وقد جرينا
 فى تقدير الرجال فى سن العشرين على قاعدة ترتيب الشهادات
 التى أحرزوها من الحكومة ومن هؤلاء دون غيرهم تختار
 الحكومة من يتولى شؤونها ويقوم بخدمتها

أما الأفراد الذين قاموا بأنفسهم وعولوا على جهودهم
 ونبغوا نبوغاً عظيماً فى المدارس الحرة فلا تنظر اليهم الحكومة

ولا تستفيد من علمهم ونبوغهم لا لسبب سوى أنهم لم
يطيعوا بطاعتها ولم يحرزوا القابها

وقد ترتب على ذلك اندفاع الشباب كلهم وراء الشهادات
مضحكين في سبيل الحصول عليها بقواهم الجسمية والعقلية
نابذين وراء ظهورهم وظائف الحياة الحقيقية النافعة التي لا يتسنى
لأمة أن تقوم بدونها وهي التجارة والصناعة والزراعة والاستعمار
وهكذا . فكانت النتيجة المحتومة من تهافت الشباب على
الدراسة النظرية أن ازدادت جموع العاطلين من الحاصلين على
تلك الشهادات وزاد عددهم عن حاجة الحكومة وأصبحوا
عيالا على المجتمع . وماذا تصنع الحكومة بذلك الجيش العرمرم
من حاملي البكالوريا والليسانس وغيرهما . لا شك أن هؤلاء
الشبان ، وقد أعدتهم المدرسة للتوظيف ليس غير ، ينزعون إلى
العبث بالنظام العام ويجنحون إلى الثورة لأنهم يظنون أنهم
ذهبوا ضحية ظلم الحكومة وجورها

يقول الكاتب الفرنسي « ليون سي » ان التعليم
الثانوي جنى على فرنسا جناية عظيمة لانه كان من أهم العوامل
التي ساعدت على نمو الاشتراكية وانتشارها فيها من جراء تلك

الزيادة المطردة في عدد حاملي الشهادات العليا الذين لم تستطع
الحكومة ان تجد لهم عملا في مصالحها

وإنَّ أظهر الأدلة على ذلك وأوضحها هو ذلك الطالب
الفوضوى (إميل هنرى) الذى بعد ان حصل على البكالوريا
وأتم دراسته العالية فى مدرسة الهندسة حكم عليه بالاعدام شنقاً
ان العلم الناقص خطر لانه يحمل الطلبة على احتقار الاعمال
النافعة من جهة، ومن جهة أخرى يحرك أطماعهم ويفتح
شهياتهم دون أن يمنحهم الوسائل لارضاء تلك المطامع وأشباع
تلك الشهوات

ان هؤلاء البائسين من حاملي الشهادات العالية من العلم
على أذهانهم فى المدرسة مرور السحاب دون أن يفهموا له معنى
أو يدركوا له غرضاً فأصبحوا لذلك عاجزين عن فهم الحياة
الاجتماعية وادراك نظريات المتشعبة المعقدة وأصبحوا لا يرون
منها إلا ما يبدو لهم من مظالم موهومة وجور مزعوم
يزداد عدده هذا الجيش الكبير كل يوم ولا بد أن يزداد
كلما عظم نفور الناس من الأعمال اليدوية . وتدل الأرقام
والاحصاءات على انه فى سنة ١٨٥٠ كان عدد الاسر التى قدمت

أبناءها للتعليم الثانوى عشرين ألفاً ، واليوم ارتفع ذلك العدد الى عشرة أمثاله . وسينبتنا المستقبل القريب عن الاسباب التى دعت الى انحطاط الأمم اللاتينية وانقراضها من عالم الوجود . لا شك ان تعليم الجامعات يكون من أقوى معاول الهدم وأهم عوامل الفناء

لقد بلغ من احتقار الفرنسيين للأعمال اليدوية أن كثيراً من العمال يكرهون أن يكون أبناءهم مثلهم عمالاً يشتغلون بأيديهم ، وأن كثيراً من المزارعين لا يروقهم أن يخلفهم أولادهم فى حراثة الارض ، ذلك لانهم ولعوا بالتوظيف وآثروا خرفة على الرخاء والغنى اللذين تدرهما الاعمال الحرة . ولقد كان من وراء ذلك أن صارت فرنسا تلتجىء الى الاستعانة بالطليان والبلجيكيين لفلاحة الارض والقيام بكثير من الأعمال اليدوية التى هى فى الواقع مصدر الثروة الحقيقية فى البلاد

لم يقف الامر عند استخدام الاجانب فى صميم البلاد بل تجاوزه الى المستعمرات ، فهذه بلاد الجزائر تموج بالسكان من أهل اسبانيا ومالطة على حين تفيض مدن فرنسا بالكتابة

والمستخدمين الذين قنعوا بالمرتب الضئيل ورضوا بالعيش
الضئك (لان الوظائف ايضاً كالسلع في الأسواق خاضعة
لناموس العرض والطلب) والسبب في ذلك راجع إلى أن
التعليم الذي تلقوه بالمدارس لم يعدم للمغامرة في الحياة العملية
ان لم يكن قد اقصاهم عنها . ولقد شعر المصلحون من رجال
فرنسا بوخامة العاقبة من دوام هذه الحال فهذا ميسو هانوتو
أحد وزراء فرنسا السابقين يصرح امام لجنة التحقيق بوجوب
تحويل عدد كبير من المدارس الثانوية الحالية إلى مدارس فنية،
ويقترح ادخال دروس الزراعة ضمن مقرراتها لان فرنسا بلد
زراعى ، وقد نجحت التجربة نجاحاً عظيماً في عدد صغير من
تلك المدارس ومنها مدرسة نيوبور المشيدة في الخلاء والتي
كلفت الحكومة نفقات طائلة، والتي كادت تغلق أبوابها لقلّة
الطلاب فيها ولكنها ما لبثت أن عادت إليها الحياة وماجت
بالطلاب لما ادخلوا فيها الدروس الزراعية النظرية والعملية، وفي
هذا وحده دليل قاطع على وجوب أن تكون مناهج التعليم
متغيرة طبقاً لطبيعة الاقليم وحاجة أهله، فتضاف الزراعة إلى
العلوم اذا كان الاقليم زراعياً، ويحل محلها علم المحاسبة وامساك

الدفتر اذا كان تجارياً وهكذا حتى تجد كل مقاطعة من ابنائها
من يتولى تسيير أمورها وينهض بأعمالها كما هو الحال في
المدارس الانجليزية الثانوية

ولقد قال « جول فرى » لما كان وزيراً للمعارف قولاً
حكماً بشأن الاعمال اليدوية وضرورة تعليمها في المدارس :
« ان اليوم الذى يتاح لنا فيه أن نضع المبرد والفارة بجانب
بركار^(١) الهندسة وكتاب التاريخ وننظر إلى جميع هذه المواد
بعين واحدة ونعيرها اهتماماً واحداً لهُو اليوم الذى يقضى
فيه على كثير من الترهات والأباطيل من عاداتنا وتزول
عوامل التفريق بين طبقات الأمة وينبعث نور السلام
الاجتماعى من حُجر المدارس الابتدائية لينتشر في جميع ارجاء
البلاد وما ذلك على فرنسا بعزير ولا سيما بعد أن مجت
امريكا في نشر تلك الطرق في بلادها

نعم اننا نباين الامريكيين في سرعة القبول للجديد لان
هذه الامة حديثة لم تثقلها قيود الماضى من عادات وتقاليد، اما
نحن الفرنسيين فقد يكون من الصعب علينا قبول الاصلاح

لما لنا من سنن متبعة وعادات متأصلة ، وصعب على الانسان
هجران ما تعود واطراح ما شب عليه ، وتلك ميزة الامريكيين
علينا فهم ليس لديهم مثلنا جامعة تُصم آذانها عن الاصلاح
وتحارب كل انشاء وتجديد

لعل من سوء الحظ للأمم اللاتينية أن كان لها تاريخ
قديم تعثر به ولا ترضى به بديلا فكلما دعا داع للاصلاح
نكصوا على اعقابهم « وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على
آثارهم مقتفون »

لذلك لم يتح لهذه الأمم أن تخطو تلك الخطوات الواسعة
إلى الاصلاح لانها تلتفت إلى الماضي فاذا هي خطت خطوة
رجع بها الشوق إلى قديمها فتقهقرت خطوات ، فنحن سنستمر
في جهاد عنيف مع هؤلاء الاموات ، ولعلنا غير مستطيعين في
يوم من الايام أن نبلى من أمامنا جيش تلك الاشباح القديمة
المروعة فقد مضى نحو قرن من الزمان دارت فيه الرحى وحمى
الوطيس بين القديم والحديث ولم يظهر ان النصر بجانب
الاحياء إلى الآن

الخلاصة

نستخلص من كل ما تقدم ان التربية والتعليم على نوعين أحدهما عماده الحفظ والثاني عماده التجربة، أما النوع الأول فقليل الجدوى ضعيف الفائدة كما أشار الى ذلك مونتين بقوله : —

Savoir par cœur n'est pas savoir.

ومعناه : ليس العلم بالاستظهار جديراً ان يسمى علماً . ويقول « كانت » في هذا الصدد : اذا لم يستطع الطفل ان يطبق قاعدة نحوية تطبيقاً صحيحاً فلا فائدة من حفظه إياها لانه يجهلها، وان الطفل الذي يعرف كيف يطبقها هو الذي يعرفها حقاً وان لم يحفظها

وتسلك الامم اللاتينية الطريقة الاولى أما الثانية فتسير عليها الأمم الانجلوسكسونية ولا سيما الامريكان، فالشباب اللاتيني يتعلم اللغة من الاجرومية والمعاجم ولا يحرك بها لسانه، ويتعلم علم الطبيعة من الكتب دون أن يمس بيده جهازاً من أجهزتها، واذا قدر له النجاح في الحياة العملية فيما بعد فلا يكون

الا بعد أن يتجرد من معلوماته القديمة ويبدأ بتربية نفسه
بنفسه من جديد. أما الشاب الأمريكي فقل أن يفتح كتاب
الأجرومية أو اللغة لانه يتعلم اللغة بقراءتها والتكلم بها، ويتعلم
الطبيعة بالتمرن على ممارسة أدواتها وإدارة أجهزتها، ويتعلم
الهندسة بأن يبدأ بالدخول كعامل في مصنع من المصانع حتى
يمهر فيها بالعمل ثم يبدأ بعد ذلك بالنظريات، وبهذه الطرق
البسيطة وصل الانجليز والامريكان إلى خلق بيئة عامية من
النابعين الذين يندر وجود أمثالهم في العالم. وانما آثرت الأم
الانجلو سكسونية طريقة التعليم والتربية بالتجربة والعمل على
طريقة الحفظ والاستظهار لا جرياً منها وراء المنفعة المباشرة
التي تعود من ممارسة الاعمال ومزاولتها فحسب، بل سعياً وراء
غاية أرفع وأسمى وهي تنمية روح المراقبة وقوة التفكير في
الناطقة، لان اجراء التجارب يستدعي النظر الصحيح إلى الاشياء
ويتطلب التأمل والتفكير، أما حفظ الدروس عن ظهر قلب فلا
يتطلب ذرة من التعقل والتصور

ولكى يقف حضراتكم على مبلغ تعلق الأم الانجلو
سكسونية بأهداب التعليم العملي تقتطف كلمة حكيمة وجهها

المستر بلاكي الأستاذ بجامعة ادنبرج إلى الشبان قال : —
 « وصيتي للشبان ان يكون العمل ومراقبة الأشياء أول
 دراستهم، وأن يعلموا ان مناهل العلم العذبة وموارده الصافية
 لا توجد في الكتب بل في الحياة نفسها وفي التجربة والمزاولة
 والمحاولة، فاذا ماتقدم المرء إلى الحياة نشيطا للعمل جريئاً على
 التجريب صبوراً على المزاولة فذلك هو سر نجاحه، وليست
 الكتب بجانب تلك الصفات والمزايا الا مرشداً عند الهفوة
 ومنبهاً عند الغفلة وساداً للكثير مما يعرض من خلل أو يطرأ
 من نقص، فالكتب الى جانب التجربة مفيدة نافعة ولكنها
 وحدها لا طائل تحتها ولا خير فيها. وما مثلها الا كمثل المطر
 يهطل على أرض لم تقلبها فأس ولم يشقها محراث

ربما يتوهم ان الاعتماد على التجربة في جميع فروع التعليم
 ولا سيما الادبيات منها كالجغرافية والتاريخ وعلم الاخلاق
 ليس بالامر الهين المستطاع، والحقيقة ان تلك العلوم تلقن
 الآن للأطفال بالعمل والتجربة ليس الا. ففي درس الجغرافيا
 يخرج المدرس بتلاميذه الى الغيطان والمتنزهات بعد أن يزود
 كلا منهم بالقلم الرصاص ويبت الابرة (بوصلة الجيب) والورق

المسطر على شكل مربعات صغيرة ليعلمهم كيف يرسمون
منظر الارض التي يمرون بها ومرتفعاتها ومنخفضاتها على
الورق في مستوى واحد بمقياس رسم معلوم مع المحافظة على
الابعاد والاضلاع . ولا يبدأ التلاميذ بالنظريات الا بعد ان
يحددوا رسم الخرائط الجغرافية

وفي درس التاريخ يعتمد على مشاهدة ما خلفته كل أمة
وراءها من مدنية وحضارة كالمباني والنقوش والرسوم وما شاكلها ،
وهذه يمكن مشاهدتها بالتردد على دور الآثار أو استعراضها
بالفانوس السحري أو السينما توغراف . ان التاريخ اذا درس
للاطفال على هذا النحو فانه يترك في أذهانهم أثراً لن يمحي على
ممر الايام والاعوام ، أضف الى ذلك انه أنفع لهم من استظهار
الوقائع الحربية وتواريخ الحوادث وسير الملوك من الكتب
أما علم الاخلاق فيصح أن نقول إن أسلوباً غير أسلوب
التجربة المباشرة في تلقينه للنشء لا يجدي نفعاً ، وقد أشار
الى ذلك بسكال بقوله « ان الاخلاق الحققة تهزأ بعلم الاخلاق »
يريد بذلك ان يقول ان من يظن ان الاخلاق تعلم بتلقين
قواعدها من الكتب فقد جهل طبائع الاطفال جهلاً عميقاً

ان التجارب وحدها هي التي تعلم الرجال، وانها وحدها
 هي التي تعلم الاطفال أيضاً، فلندع الاطفال يميزون الخير من
 الشر بأنفسهم ، ولنعودهم من نعومة أظفارهم أن يتحملوا تبعة
 الشر كلما وقعوا فيه . قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: فلان
 لا يعرف الشر قال هذا أخرى أن يقع فيه

وهؤلاء سكان الجزر الفقيرة الذين اضطرتهم قساوة
 الطبيعة وضنك العيش الى الارتزاق من طريق عراك الحوادث
 ومكابدة الحيل (والحاجة تفتق الحيلة) الى التخلق بأخلاق
 الرجولة الصحيحة كالصبر والثبات والارادة والدهاء والجرأة
 والاقدام ، لأنهم تلقوها بالتجربة ودرسوها بالعمل فكان لها
 هذا التأصل في نفوسهم والرسوخ في طباعهم ، ولا تكون
 أخلاق الامم أخلاقاً صحيحة ثابتة الا اذا غرست في نفوس
 أبنائها بالتجارب والممارسة زمناً مديداً ، وتلك هي الغاية التي
 تتجه اليها جهود المصلحين والغرض الاسمي الذي ترمى اليه
 التربية الحديثة التي وضع لها الدكتور جستاف لبون تعريفاً
 جديداً مختصراً جامعاً اتفق كبار المربين في الامم الراقية على

اتخاذها أساساً تبني عليه تربية النشء وهو L'Education et l'art
 de faire passer le conscient dans l'inconscient، ومنعاه
 أن التربية فن يوصل الى جعل النظريات التي تفتقر الى أعمال
 الفكر والروية — عادات وغرائز في النفس تصدر عنها من
 غير تأمل ولا تفكر لطول المراتة والمراس. وقد فطن أركان
 حرب الانكليز والامريكان الى هذا التعريف وقدروا أهميته
 قدرها في التربية العسكرية على وجه الخصوص لأن الجندي
 في ميدان القتال مسوق الى العمل بغرائزه وعاداته وهو يعتمد
 عليها أكثر من اعتماده على عقله وتصوره

الخاتمة

أيها السادة

الى هنا فرغت من شرح أمهات مسائل التربية والتعليم
 في أمريكا مع مقارنتها، على قدر المستطاع، بمثلها في الامم الاوربية
 الراقية، وليس لي من غرض الا أن أعرض على مسامع حضرات
 المعلمين أو الغيورين على التعليم في مصر من أي طبقة كانوا
 أفكاراً سليمة جديدة في التربية والتعليم كانت هي السبب

الوحيد في أن أصبحت الامة الامريكية متبوءة مكانة سامية
غبطها عليها أعظم الامم الاوربية حضارة ورقياً

أعرض تلك الافكار الصحيحة وأنشرها بين الناس
لاعتقادي أن الانسان يجب ألا يتردد في نشر الأفكار
الصائبة النافعة في البيئة التي يعيش فيها فانها كالبذور الصالحة
لا بد أن تنبت يوماً ولو أصابت أرضاً يابسة جامدة — أعرضها
وأنشرها بين طبقات المعلمين خصوصاً لعلهم ينسجون على
منوالها ويحتذون مثالها في مدارسنا أو يقتبسون منها على
الاقل ما يناسب حالنا ويتفق مع ذوقنا

قد يكون من الصعب أحياناً نقل طرق التربية والتعليم
برمتها من أمة الى أمة أخرى وربما لا يكون ، فاليابان مثلاً
وهي أمة جديدة لم تثقل كاهلها العادات المتوارثة والتقاليد
المتعاقبة استطاعت أن تنقل نظام الجامعات في المانيا بحذافيره
فانيع وأثمر وأصبح لدى اليابان بيئة علمية لا تضارعها في
التثقيف وحب البحث والاختراع الا البيئة الالمانية

ومصرنا الجديدة الناهضة لا يضيرها ان تقتبس من

النظم الحديثة ما تشاء فليست المدنية الا تقليداً وانقياداً بعد
تحكيم العمل والذوق في اختيار الاصلح والاناسب

وان قبول التبديل والتغيير وسرعة الأجابة لدعوة
الاصلاح من اسرار نهوض الامم ورقياها ، فهذا موننتسكيو
يعزو رقي الرومان وتفوقهم الى تلك المرونة في طباعهم وسرعة
اخذهم بالحسن متى ثبت لهم حسنه وقبولهم النافع والمفيد متى
تحققوا نفعه ووثقوا من فائده حيث يقول : « إن من أهم
الاسباب التي جعلت الرومان سادة الدنيا وقادة العالم انهم وهم
يحاربون أم الارض جميعاً ويفوزون عليها الواحدة تلو الاخرى
لم يحجموا ابداً عن التخلي عن غاداتهم والتخلي بما يجدونه
اناسب منها وأصلح . ثم يقول بعد ذلك « ومن المدهش أن
تلك الأمم التي نازلها الرومان في جميع الامكنة والازمنة
استسلمت للفناء استسلاماً دون أن تفطن الى سبب تدهورها
وتبحث عن علة شقاءها »

وهل لشقاء الامم المغلوبة على أمرها من سبب سوى
الجهل الخيم على عقول ابنائها واستئثار كل فرد منهم بحب

الفخار مفضلاً شهوته ومصلحته على مصلحة الوطن، فالأثرة
والإنانية هي الداء الدوى الذى ينخر عظامنا اليوم
لقد اغريتكم أيها السادة بسلوك طريق الرومان فى
سرعة قبول الجديد الموافق وليس ذلك طمعاً فى أن نسود
العالم مثلهم ولكن طمعاً فى ألا يسودنا أحد وأن يكون
بناؤنا بأيدينا واعتمادنا على انفسنا حتى نتبوأ بذلك مكاناً لا ثقاً
بين الأمم

وليس مرادى من التمدح بسرعة قبول الجديد والرضا
بالتبديل والتغيير ان نقلب الامور رأساً على عقب فان ذلك
لا ينبغى أن يكون سبيل أى مصلح قرب عجلة تهب ريشاً،
ولو أن مصلحاً متعسفاً بدّل الأشياء جملة فانها تواتيه حيناً
ولكنها لا تلبث اذا زال عنها استبداده وارتفع سلطانه أن
تعود الى قديم شأنها وسابق عهدها

إن الإصلاح الناجع ولا سيما فى أساليب التربية والتعليم
هو ذلك الإصلاح التدريجى المستمر الذى يحاكى الطبيعة فى
فعلها فهي التى كونت الجبال الرواسخ من ذرات الرمل
الصغيرة بتراكم بعضها فوق بعض على مدى الايام والاجيال

فكرت وزارة معارفنا من عهد قريب في تغيير مناهج
 التعليم وتنقيحها ورأت أن تضيف إليها مواد جديدة كالمنطق
 والتربية الوطنية والتاريخ الطبيعي الخ. هذا حسن في ذاته ولكن
 نرجو ان تكون قد فكرت قبل أن تزيد تلك المواد الجديدة
 في النقص من المواد القديمة حتى لا ينوء التلاميذ بثقل الحمل
 والعبء الباهظ الذي يضطرهم الى شحن أذهانهم بما لا يدوم
 فيها الا ريثما ينقضى الامتحان ، فلقد شاهدت بنفسى أثناء
 تفتيش المدارس الثانوية ان المدرسين يشكون من طول المناهج
 ولذلك رأيتمهم يهتمون باتمام المقرر اكثر من اهتمامهم بتنقيف
 أذهان التلاميذ وتربية ملكة التعقل والاستنباط فيهم حيث
 لا يدعون لهم من الوقت ما يمكنهم من التفكير والثروة
 بحجة أن المقرر أطول من أن يسمح لهم بالمناقشة والاستقصاء
 ليس من الضروري أن يكون تنقيح مناهج التعليم
 بالزيادة في المواد بل قد يكون بحذف بعضها واختزال البعض
 الآخر فسر التعليم هو في القليل الشائق المفهوم الذي يدعو
 الى الاستنباط ويعود الحكم الصحيح على الأشياء والتبصر
 في عواقبها . التعليم الصحيح كما يقولون « كيف لا كم »

وتلك نقطة أساسية وفكرة جوهرية في موضوع التعليم نحب أن نوجه إليها الانظار توجيهاً خاصاً وإن كنا نعتقد أنها لا تعزب عن فطنة وزير المعارف الذي لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً في سبيل الإصلاح والتجديد من يوم أن تسلم مقاليد التربية والتعليم

على أننا نرحب بكل زيادة في مقرر الدراسة تنمى في النشء اخلاق الرجولة الصحيحة كالعمل اليدوى الذى يجب اليهم الحركة ويعودهم الصبر والثبات والمقاومة فى معالجة شئون الحياة .

سمعنا أن وزارة المعارف اعترمت انشاء أقسام لفلاحة البساتين، وتلك فكرة جميلة تشكر عليها وأملنا أن تتوسع فى هذا المنهاج من التعليم وتعممه فى المدارس الأولية والابتدائية كما توسع فيه الأمريكان على نحو ما سمعتم فى المقال السابق ان تقتدى بها المدارس الأهلية الغنية كالجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية المساعى المشكورة التى تملك نحو ألف وأربعمائة فدان - كان الواجب على تلك المدارس الحرة الاتسير على منهاج التعليم النظرى أسوة بالحكومة بل تقصر جهودها على تنمية

هذا النوع من التعليم خدمة لا بناء اقليمها حتى يخرج منهم
الصالحون للحياة العملية الزراعية ولا نرى منهم المتهافتين على
الوظائف . وفي اعتقادي أنه لو استمرت الحال في مصر على
ما نرى من العناية بالتعليم العلمى دون التعليم الفنى لوقعنا بعد
بضع سنوات فى تلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة الواقعة فيها
أوروبا اليوم وهى مشكلة العاطلين من حملة الشهادات على نحو
ما ذكره جستاف لبون عن فرنسا

وقد سمعنا كذلك أن الوزارة اعتزمت تدريس التاريخ
الطبيعى بفروعه من حيوان ونبات وجماد فسدت بذلك تقصاً
كبيراً لازم التعليم فى مصر مدة الثلاثين عاماً الاخيرة، واکبر
أملنا ألا تقتصر فى تدريسه على النظريات وشرحها بين جدران
المدارس ، بل المأمول أن يخرج التلاميذ فى فهم هذا العلم الى
العمل والمشاهدة بأنفسهم فى الحقول والبساتين حتى تعشق
انفسهم تلك المعيشة وتستريح اليها وتقنع بها . وأرى ان
يبدأ بدراسة هذا العلم الجليل الاثر فى تنمية قوة الملاحظة من
السنة الاولى .

جاء فى تقرير اللجنة البرلمانية الفرنسية ان عدد التلاميذ

الذين يعدون انفسهم للعلوم النظرية في المدارس الثانوية
١٨٠٠٠ وان عدد من يتخصص لقروع الحياة العملية من
زراعة وتجارة وصناعة لا يتجاوز ٢٢٠٠٠ أعني بنسبة ٨ من
النوع الاول الى واحد من النوع الثاني ، والاولى ان تعكس
النسبة لان الامم لا تعيش بالحامين والمهندسين فحسب بل
رغد عيشها من كد المنتجين من الزراع والصناع والتجار ،
وهؤلاء هم نحو تسعة اعشار الامة فلا بد ان يكون لهم من
المدارس ما يناسب عددهم

وهاكم ما جاء في تقرير لجنة التجارة والصناعة المنشأة
بقرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١٦ برئاسة
صاحب المعالي اسماعيل صدق باشا « تقترح اللجنة ادخال
التعليم التجارى الاول فى المدارس الاولى والتشجيع على
توسيع دائرة الدروس التجارية الليلية فى المدن العظيمة لانه
من اللازم ان يؤثر التعليم التجارى تأثيره المطلوب فى الطبقات
الوسطى والفقيرة من الاهالى على الأخص لانهادون غيرها
هى التى حافظت الى الآن على الروح التجارية وتقاليدها
خلافاً للطبقة العليا عندنا فقد بقيت مبالغة الى السيادة والى

وظائف الحكومة . واقترحت ادخال المحاسبة وامساك الدفاتر
في المدارس الثانوية اذا سنحت الفرصة لتعديل مناهج التعليم
أو توسيعها في هذه المدارس »

وخيراً فعلت وزارة المعارف في اجابة هذه الامنية
بادخالها علم امساك الدفاتر ضمن مقرر الدراسة الثانوية ، فان
دراسة هذا العلم وعلم التاريخ الطبيعي تفتح المجال أمام
الراغبين في الالتحاق بمدارس التجارة أو الزراعة العليا، وبذلك
يصبح التفرع شاملاً لخمسة اقسام عظيمة

ورجاؤنا الاخير الى وزارة المعارف ، قبل أن تبت في
تغيير المناهج وتنقيحها ، أن تقتدى بالأُم الراقية فتعرض ما
ارتآه رجالها على أهل الذكر في بلادها ، ففي مصر وزراء
سابقون للمعارف ومديرون اداروا المدارس ومعلمون تركوا
التعليم - هؤلاء يحسن أن يشركوا في الامر ليبدو آراءهم الصالحة .
فهذه انكارنا استأنست برأى كل عالم حين شاءت تغيير
المناهج فأخرجت لجنّتها للناس تقريرها في واحد وعشرين
مجلداً بعد سنتين كاملتين في البحث والتنقيب ، وهذه اللجنة
البرلمانية في فرنسا أخرجت تقريرها في ستة مجلدات ضخمة .

والتقريران يعوجان بالآراء الصائبة والانتقادات الصحيحة
لكل ذي رأى ولكل منتقد . ثم فيهما التاريخ الصادق
لمساوىء التعليم وعيوبه مشفوعاً بالعلاج النافع والدواء الناجع
وإني في الختام أرجو أن أكون قد أصبت المرمى في
تقل هذه الآراء السديدة الجديدة في التربية والتعليم من اللغات
الاجنبية الى لغتنا العربية السمحة ، كما أرجو أن يكون لها من
الأثر في نفوس المصريين ما كان لها في نفوس الاوربيين
الذين اعترفوا بأنها كشفت لهم الغطاء عن حقائق وأسرار
في شئون التربية والتعليم غابت عن أذهانهم واستعصت على
أفهامهم وأنهم سيتخذونها مثالا يحتذونه في تهذيب النابتة
ونبراساً يستضيئون بنوره في إعداد الاجيال المقبلة للكفاح
والنبضال في ميدان الحياة العملية الحققة ، فعسى أن تقتدى بهم
ونجري على سننهم ، والله ولى التوفيق

المؤلف

١ - التربية في إنجلترا

ومقارنتها بالتربية في فرنسا

٢ - علاقة العلم بالأخلاق

٣ - العقل وكيف يتكوّن

٤ - الجمال وأثره في التربية والتعليم

٥ - التربية في أمريكا

ومقارنتها بالتربية في أوروبا

<

DATE DUE

4AFET LIB

2 1 1982

العمروسي، احمد فهمي
اربع محاضرات في التربية في إنجلترا

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01022173

370.4: A522H

العمروسي - احمد فهمي

اربع محاضرات في التربية في إنجلترا

370.4
A522H

